الدكتور محمد رجب البيومي

كيف ينقدون الكتب؟

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

قبل ان تفتح الصحف والمجلات ابوابها لنقد الكتب او تقريظها ، او بعبارة دقيقة قبل ان تنشأ الطبعة وتعم ثمارها الطيبة جمهرة القراء ، كان النقد في اكثر احواله وقفا على المتخصصين ، فاذا ظهر مؤلف يستدعي النقد تصدى له ناقد في مثل مكانة المؤلف ان لم يزد ، واصدر كتابا مفصلا خاصا بوجهة نظره ، لذلك نرى تراثنا الأدبي يضم فيما يضم كتبا نقدية افردت لنقد كتب معاصرة لها او سابقة عليها تصدى لها الناقدون بالبحث والتمحيص ! وطبيعي ان الذي يهتم بنقد كتاب علمي او ادبي في كتاب خاص يجد لديه ما يقول! بل ان الذين يتعرضون من السابقين النقد الجزئي في مؤلفاتهم الموسوعية يصدرون في اكثر امورهم عن اصالة وعمق وان جرهم الحفاظ الى بعض القسوة المتطرفة كما نشهد في موسوعة الضوء اللامع للسخاوي مثلا ! فالنقد القديم في اكثر امره موضوعي دسم اذ يقوم به المتخصصون عن جدارة واهتمام

ولكن انتشار الصحف والمجلات دفع اصحابها اليوم الى تخصيص باب للكتب الجديدة يتحدث كاتبه عما يراه في المؤلفات المعاصرة عارضا او ناقدا ، محبذا او مفندا وذلك با يفيد يرشد القراء الى ما تنتجه المطابع من ثمار ، وتعظم فائدته اذا نهض بتحريره ناقد متمكن يوازي المؤلف في تمكنه وتضلعه ان لم يزد عنه تمكنا واستيعابا حتى يستطيع ان يبرز محاسن الكتاب او يحدد اماكن الضعف فيه عن حيدة واخلاص ! وقد رأينا من اعلام النقد في ادبنا المعاصر من شقوا طريقهم الادبي في مضمار الصحافة نابهين ، اذ يفيئون الى ثقافة واعية ، وبصر ناقد واستشفاف ملهم ! ولكننا رأينا مع ذلك كثرة كثيرة من ادعياء النقد في شتى الصحف يومية واسبوعية وشهرية، يزعمون لانفسهم حق الحديث عن المؤلفات الجديدة ، ويحتفظ كل كاتب منهم لنفسه بلقب الناقد ، يدعيه في اعتداد وثقة ، ثم يدفعه ذلك الى التطاول على كل مؤلف يقع في يده دون تحديد ، فمرة يتحدث عن كتاب ادبي ، ومرة يتحدث عن كتاب علمي في الفلسفة او الاقتصاد او القانون او الطب ! وكأن صاحبنا قد جمع اشتات المعارف في عصره ؛ فلا يغادر كبيرة أو صغيرة الا خب فيها ووضع !

والذي يقدر قيمة النقد يهوله ان يحدث ذلك ويستعظمه ، وربما عد ذلك بادىء ذي بدء معجزة خارقة تتاح لعبقري من عباقرة البيان اوتي ادراكا محيطا جعله قواما على فروع المعرفة في عصره ، ولكن الذي يحدث — للاسف — غير ذلك تماما ! فالناقد من هؤلاء الادعياء يلتزم خطة سطحية لا يحيد عنها رغم سأمها وتكرارها ! هي خطة سطحية تتفرع الى طريقين طريق يتبعه اذا حاول ان يمدح وطريق آخر يسنه اذا حاول ان يقدح ! والمدح هنا والقدح كذلك ليسا نتيجة دراسة او المام ، ولكنهما تكيف ذاتي تحدوه مشاعر الكاتب واحاسيسه الخاصة فاذا حاول التملق الى كاتب كبير ، او الاستفادة من جاهه الواسع فالمدح واجب مفروض ، واذا حاول التحرش بكاتب آخر بدا له ان يتحرش به دون سبب موضوعي ، فالقدح واجب مفروض ايضا ، وكلا الطريقين — على طريقته الخاصة — سهل ميسور .

لقد تعودت ان اطالع ما يكتب هؤلاء ! وكم حاولت ان انأى بنفسي فما استطعت اذ لا بد ان الم بباب الكتب الجديدة في الصحف والمجلات ، جل او هان ، وبذلك استطعت ان افهم طريقة هؤلاء الناقدين — حفظهم الله — في معالجة ابوابهم الدسمة ، فعرفت كيف يمدحون او يقدحون ، وفق منهج امي ضحل يكتفي بقراءة مقدمة الكتاب المنقود في اول صحيفة منه ثم بقراءة الفهرس في آخر صحيفة منه كذلك ، وما بين المقدمة والفهرس لا يقرأ اذا احسنا الظن بالسيد الناقد ! او يقرأ ولا يفهم اذا اردنا ان نعترف بالحق صراحة .

اما تفصيل هذا النهج الامي اذا سلك سبيل المدح فانه يبدأ باسطر معدودة عن موضوع الكتاب تليها اسطر معدودة عن مؤلفه ثم يسرد معرج لابواب فصوله كما استشفها الناقد من الفهرس وحده مضيفا اليه ما يوحي من العنوان من خواطر تنأى في كثير من احوالها عما يهدف

أيد الكتاب ! على هذا السرد السطحي الموج يقوم المقال وبه يتسنم الناقد الكبير عرشه حتى اذا فرغ منه لجأ الى التشبث بكلمة لغوية وقع في عثرتها الكاتب دون ان يعتصم بالقاموس او باللسان !

وتطبيقاً لهذا المنهج اقدم ما يتصور ان يكتبه احد هؤلاء الامثال عن كتاب كعبقرية عمر العقاد مثلا لاعطي القارىء نموذجا قريبا من نقدهم البارع فيه ما يلذ ويشوق كان يقول احدهم — مثلا — وهو يقتعد منصة النقد الحديث !!

« عمر بن الخطاب شخصية فذة في التاريخ . قل أن تصادف مثلها فيما نعرف من عظماء الدول وقادة الشعوب ، ففي عهده ازدهر الاسلام وامتد الى مساحات بعيدة من الارض اذ أشرق نوره على الآفاق بقيادة هذا البطل الملهم الذي قاد السفينة في امواج مضطربة حتى حملت النور الى اصقاع داجية فازاحت الظلمات ، وطبيعي ان يكثر الحديث عن الفاروق في كل عصر وجيل ، وقد ظهرت في المكتبة الحديثة عدة مؤلفات تتحدث عن عمر ، ولعل آخرها كتاب العقاد عنه ، والاستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، علم من اعلام الادب في مصر فهو كاتب سياسي تسقط مقالاته الافتتاحية في امهات الصحف رؤساء الوزارات ، وهو شاعر كبير حمل لواء التجديد في الشعر مع عبد الرحمن شكري وابراهيم المازني حتى اوجد مدرسة شعرية ذات طابع خاص . وهو ناقد ادبي خطير سن مبادىء جديدة في دنيا الادب واسقط قمما عالية كشوقي والمنفلوطي والرافعي والاب انستاس ! ثم هو مؤرخ كبير تحدث عن اعلام التاريخ بقوة وعمق ! وكتابه اليوم عن عبقرية عمر من سلسلة ابحاثه التاريخية القيمة بداه بفصل يتحدث عن عمر العبقري فذكر علامات العبقرية في الرجل ساردا من صفات عمر النفسية والعقلية ما يدل على هذه الصفة البارزة لديه ، واستشهد باقوال مهمة لرسول الله ولابي بكر في الفاروق متخذا من اعماله الشخصية ما يوضح ذلك وفي الفصل الثاني تحدث عن امتياز عمر وكيف خلع عليه الامتياز هيبة جليلة بين معاصريه مستشهدا باقوال عائشة عنه وكم لها عنه من حديث ثم شفع ذلك بكلام عن العبقرية للعالم الايطالي لومبروزو ، اما الفصل الثالث فيتحدث عن صفات عمر التي حباها الله إياه من القوة والعدل والرحمة والاستقامة والايمان وهي صفات نعرفها لدى الفاروق وقد فطن العقاد الى شواهدها المأثورة فاوضحها في عمق ودقة ثم تحدث في فصل تال عن مفتاح شخصيته الخلقية فجلى العقاد وبرز في هذا الباب اذ ان الكاتب قد تعود ان يعرف دقائق كل من يتحدث عنهم معرفة وافية ، وبذلك يهتدي الى السر في عظمة المتحدث عنه اهتداء يتعذر على غيره ممن يطيلون الكلام في غير طائل ، ثم جاء حديث العقاد عن اسلام عمر فذكر الناقد قصته مع اخته حين اسلمت دون مشورته ووصف غضبته وامتشاقه السيف وذهابه الى بيتها غاضبا مؤثرا الانتقام الباتر والعقاب الرادع حتى اذا استمع الى بعض آيات القرآن نزلت السكينة على قلبه فاطمأن الى الاسلام » .

ثم يفصل صاحبنا هذه الحادثة في اسهاب ممل كانها مما يغيب عن عقول تلاميذ الصف الاول من المرحلة الابتدائية وهي وحدها تحتل اكثر من نصف المقال ، وما اريد ان اتبعه في تفصيل هذه الواقعة فاجعل القراء يضيقون بمقالي ساخطين ، ولكني اشير الى ان هذا الصنف من النقاد لا يتورع ان يأخذ سامعك بالرعود مجلجلا في غير ميدان ليقول لك ما لا يخرج عن الحقائق البدهية من امثال السماء فوقنا والارض تحتنا ! وما الاسراف في سرد قصة اسلام عمر وامثالها لديهم الا صورة ناطقة بالخواء والغفلة وكثافة الاحساس بل جموده احيانا !

ويلتزم الناقد اللامع مذهبه فيتابع الحديث عن تحول عمر والدولة الاسلامية وعمر والحكومة العصرية وعمر والنبي وعمر والصحابة وثقافة عمر وعمر في بيته ، وصورة مجملة ! ولكن اي حديث يتابع ! انه حديث العنوان وما يوحي به ، وكتاب مثل عبقرية عمر للعقاد لا تغني معرفة عناوين ابوابه شيئا ، اذ ان الكاتب الكبير يلج الى مسارب لا يدركها غير من كان في مثل تفكيره وابداعه ، ولكن اخواننا النقاد ممن نتحدث عنهم يظنون انهم قد احاطوا علما بكل شيء وان الحديث عن الفاروق لا يتطلب جديدا من العقاد فيكتبون من الذاكرة وكأنهم المّوا سلفا بما ذكر الكاتب الكبير !

فاذا فرغ الناقد من متابعة فصول الكتاب ! قال ان مما لاحظه على المؤلف استعمال نحو كلمة السذاجة دون البساطة ! كما كرر كلمة ساهم واولى منها كلمة اسهم ، ثم وقع المقال بامضائه كأثر هام ينشر في جريدة سيارة لناقدها الادبي الكبير !

هذه صورة متخيلة لما يكتبه اذا سلك سبيل المدح ! ولا بد ان نشفعها بصورة متخيلة اخرى لما يكتبه اذا سلك سبيل القدح ، وسيظن القارىء لاول وهلة ان كلا السبيلين مختلف في تقدير الناقد لبعد ما بين القدح والمدح من مسافات ! ولكن الغريب حقا ان كلا السبيلين متفق تمام الاتفاق ، وذلك وحده مكمن العبقرية لدى الناقد الحصيف . فهو اذا اراد ان يتحدث عن عبقرية عمر قادحا لا مادحا ، بدأ بمقدمة عن عمر لا تختلف عن المقدمة السابقة ! وذلك مقبول، فاذا انتقل الى الحديث عن المؤلف طواه في عجلة ليلج الى ابواب الكتاب فيستعرضها — في مجال القدح — كما استعرضها في مجال المدح تماما ! ولكنه ذكي نبيه فهو يشفع كل باب بانه معروف لم يأت بجديد ، او انه قد طال في غير موجب ، فاذا انتقل الى فصل آخر قال انه مبتور لم يستوف حق

الكلام ! هكذا هكذا !! دون ايضاح لا اغفل الكاتب ان حكمنا على عمله بالبتر ولا أذكر فيه ان حكمنا على فصله بالاطالة ثم التمحك في المشكلات العمومية نحو اغفال بعض المصادر والطبع على ورق غير مناسب والغلو في ثمن الكتاب ! ولا بد من المحافظة بعد ذلك على مأخذ لغوي او مأخذين ! ثم يوقع المقال معتقدا انه فجر قنبلة الموسم وانه اسقط الكتاب فلا نهوض !

هذا ضرب من النقد قد ذاع وفاش في انهار الصحف وابواب المجلات . وكان من الاجدر أن نغضي عنه لان من القراء كثيرين من الاذكياء الذين يضحكون ساخرين لتفاهة ما يقرءون ! ولكن الخطر كل الخطر . ليس في ذلك ، بل في نفسيات هؤلاء الناقدين (الكرام) حين يغش احدهم نفسه فيرى انه ناقد من طراز سانت بيف او طه حسين على الاقل ! ومما يجسم له هذا الوهم ما يقع فيه ادباؤنا الكبار حقا من ضعف مشين ! اذ ما يكاد الناقد يتعرض بالحديث من كتاب لاديب شهير او قصصي كبير حتى يتلقى خطابات الشكر المسهب يعرضها على اصدقائه كاوسمة لامعة تشير الى مكانته لدى زعماء الادب في الامة ! ويا لله من دخائل بعض النفوس لامعة او خاملة ! فانت تسأل حقا مغضبا من كاتب ضليع ترضيه هذه التفاهة في عرض مؤلفه ، فيشكر بالتليفون ثم يكتب بالبريد ! ثم يبعث بعدها مؤلفات له كهدية متواضعة للناقد الخطير ، تأكيدا للود ، وتوطيدا لعلائق الصداقة ! هذا الاتجاه المريض من ادبائنا الكبار هو مكمن الخطر في تدعيم هذه التفاهات ومبعث ما نراه من ادعاء وتطاول ، والناقد المسكين في تفكيره الضحل ، وهرائه الغث معذور حين يظن نفسه شيئا كبيرا ! أليس فلان وفلان وفلان من زعماء الادب في الامة يحرصون على وده ويهدونه كتبهم ، ويرسلون اليه بطاقات التهنئة في شتى المناسبات لم يسألونه معاودة الحديث !

كل ذلك التكالب — واهون منه — قد دفع باصحابنا الادعياء الى جمع ما يعتقدون انه مقالات نقدية في كتب خاصة بالنقد ! فصرت ترى احدهم يصدر كتابا يختار له عنوانا جاذبا مثل « في الميزان » « تحت المبضع » « اضواء ناقدة » « على الصراط » ويزفه هدية لعشاق النقد في الادب العربي ! وما هو غير هذه الامشاج المختلطة من معسول الراي وتافه العرض ! بالله ! لقد كنا نعد المقال الواحد عورة سيئة في صحيفة سيارة فاذا به فصل راسخ من فصول كتاب ! واذا روعة الطبع ، واناقته وجودة الورق ونصاعته ، و براعة الريشة المصورة على غلاف الكتاب ، اذا بذلك وحده كل ما يروق القارىء الحصيف ! واذا الناقد المؤلف يوالي النقد في صحيفته متهيئا الى اصدار كتاب نقدي جديد !

لقد استشهدت في صدر هذا المقال بنموذج مخيلته لا يتصور ان يكتبه احد هؤلاء عن عبقرية عمر للعقاد ! وقد اخترت كتابا للاستاذ العقاد بالذات لاشير الى حادثة يعرفها كثير ممن كانوا يرتادون ندوة هذا العملاق الكبير ! فقد كتب احد هؤلاء الاغرار عرضا لكتاب « يسألونك » في صحيفة سيارة ثم ارسله بالبريد المسجل للكاتب الكبير واخذ يتوقع ان يدق الهاتف في مكتبه سريعا بادارة الجريدة ليتلقى عبارات الشكر من المؤلف كما اعتاد ان يتلقاها ممن يتمتعون بشهرة العقاد دون خلقه وادبه وسلوكه ! ولكن الساعات تمضي ، وكذلك الايام دون ان يتحدث العقاد . فما جاء يوم الجمعة الخاص بندوة العقاد حتى اسرع المسكين للقاء الرجل مع تلاميذه ومرتاديه ! وقد تخيل ان مجرد النطق باسمه سينهض العقاد من مكانه ليحيي الناقد الفذ ، معتذرا اليه عن التأخير . ولكن الناقد المغرور يدخل ويقدم نفسه للرجل فلا يقابل بغير ما يقابل به كل مرتاد للندوة ! فيجلس على مضض ، ويظن ان العقاد سيقطع حديثه ليتجه بالشكر اليه وتمضي اللحظات دون شيء ، فيضيق صاحبنا بموقفه ويسأل في غير مناسبة : هل قرأ الاستاذ نقدي لكتاب « يسألونك » ولكن العقاد يقهقه ملء فمه ويقول هو انت ! الله يجازيك يا شيخ ! انت مالك ومال « يسألونك » يا ابني !!

فيبهر الناقد ويشعر بحرجه في الندوة فيلتقط انفاسه ويسأل وماذا فيما كتبت يا سيدي ! فيقول العقاد : انت لم تقرأ الكتاب يا بني ، فاقرأ ثم تعلم ، ولا تكتب شيئا الآن !

وتتلاقى النظرات ! ويسيل العرق على بعض الوجوه ثم يقفز صاحبنا مستأذنا في عجلة واضطراب !

هذه نادرة نعرفها للعقاد ! ثم نسأل بعدها متحسرين كم في ادبائنا الكبار مثل استاذنا العقاد ؟ واذا كنت لا استطيع ان اغفل موقفا لي يناسب هذا الموضوع ، فانني اذكر ان احد هؤلاء ظنني اهلا للخير فتعطف علي باهداء كتابه النقدي ، وطلب مني ان اضع (تعريفا) مناسبا له اجره المادي ، لينشر في صحيفته اليومية ! وظن تلك يدا كريمة يتفضل باهدائها الي ، فغاظني ذلك حتى احنقني ثم رأيت ان أعابثه فأثرت منهجه النقدي اذ ابتدأت بكتابة كلمة ركيكة تتضمن التعريف بعنوان الكتاب ثم بعناوين ابوابه فقط وختمتها بتصيد كلمتين لغويتين ، ولكني لم التزم بخطوات منهجه اذ اهملت الحديث عن المؤلف الكبير !! وتقدمت بما كتبت اليه فهز رأسه وهو يقول في غيظ — انت يا عم من مدرستي ! مبروك فلم اتمالك ان قلت ! مدرستك ! العفو يا سيدي !

الفيوم — دار المعلمات　　　　محمد رجب البيومي

نظير زيتون

القيت في ذكرى الاربعين في مدينة حمص في اول ايلول ١٩٦٧
لفقيد الادب الكبير المرحوم نظير زيتون

ايهـا الراحـل الحبيب الينـا ... كنت في الامس بيرقا في يدينـا
عهدنـا والزمـان انـك بـاق ... مـا بقينـا فكيف جرت علينـا
اترى هزك الحنين الـى مـن ... راح من صحبنا . فازمعت بينـا
تاركـا خلفك الاسى لمحبيك ... وذكرى كالريح تعصف فينـا
واحنيني الـى ليال مـن العمر ... تقضت . من صفوها مـا روينا
يوم كنا على منابر (سان بولو) ... هزاريـن نبـدع التلحينـا
ببيان يذوب كالسحر في الاسماع ... او في الطروس مـن اصفرينا
تتهادى على اللآلىء مـن نظم ... ونثر فتـرقص السامعينـا
تتبارى الى الدفاع عـن الحق ... ونمضي لا نحفـل الشانئينـا
صور للنضال تشمـخ بالمجـد ... شموخ الشباب فـي بردتينـا

يـا لشوقي الـى ازاهر ايـام ... جناهـا الزمان مـن روضتينا
يا لشجوي عـلى رفيق التراب ... وذبيل مـن صفوة المنشئينـا
وصديق كزنبق الحقـل طهـرا ... واريجـا يعطـر العابرينـا
ادب مزهر تتيه بـه الفصحى ... وزهـو مباسمـا وعيونـا
خلق مـن سماحة اللـه فيه ... نفحة تتـرك الحسود خدينـا

ما لحزني يزيد ان ذكـروا (نصرا) ... و (حسني) وما لدمعي هتونا (١)
مـا لقلبي وفيه مـن صور الا ... ثنين وجهان لا يغيبان حينـا
يشهد اللـه كلمـا رف طيف ... منهما في الذكرى هتفت حنينـا
اي معنى مـن عالـم الوحـي ... والالهام لم ينسجاه شعرا رصينا
اي مـوج على شواطىء بحـر ... اللهو .. لم يصطفق على ضفتينا
ذاك عهـد للطيبات وان ولـى ... فقـد بلغت الخلـود الينـا ؟
ذكريات في النفس تلهب احلامي ... وتبقى علـى الفؤاد شجونـا

قـل لحمص انا نزلـت بحمص ... وهـي ام البلابـل النازحينا
صرت من فرط ما سقتك الليالي ... من خوابي الاسى مـن المدمنينا
نحن صنوان فـي الرزئة يـا ... حمص كلانـا ينهنـه الانينـا
ان كاسا سقاك منهـا (نظيـر) ... قـد سقانا : فاحرقت شفتينا

لو درت امـة المغاوير سوريـا ... وقـد كـان سيفهـا المسنونـا
من هو الباسل المناضل عن امجاد ... ابنـاء قومـه الثائرينـا
ممـن تحـدى المستعمرين بعزم ... ويراع كـم حطـم المفترينـا
لمشت تنثـر النجـوم زهورا ... فوق مـن زيـن التراب دفينـا

---

(١) نصر سمعان ـ وحسني غراب هما من كبار شعراء حمص في البرازيل رحمهما الله

جبيل ـ لبنان ... شكر الله الجر

نظير زيتون

ظاهرة السجع في اسلوب نظير زيتون

بقلم ممدوح السكاف

* * *

السمة الواضحة ، والعلامة المميزة في شخصية نظير زيتون ، وفي أدبه هي الطموح الاسمى والانقى والاجود ... فتى في الرابعة عشرة من عمره يهجر مدينته حمص مع مواكب المهاجرين الى امريكا الجنوبية لا عن ضيق في الرزق او قلة في الموارد المالية فلعله من الميسورين المنعمين ، بل رغبة في الكشف والتبصر والسياحة البدنية والعقلية ، وانسياقا مع حلم هذه الارتال الكثيرة في حياة لها طعم جديد ، ونكهة جديدة في ارض جديدة .

ويصل الفتى الى القارة البكر ، وفي مخيلته الطفل احلام والصورات براقة بالغنى الوفير ، يأتيه من عرق جبينه وكده وكفاحه ، وبالشهرة الذائعة يسهر من اجل بزوغها وانطلاقها الليالي ، ويشقى النهارات .

ويعكف لدى حلوله في « سان باولو » على التجارة الصغيرة كأكثر المهاجرين ، ويتقلب في اطوار شتى ، ومراحل متعددة اكثر من عشر سنوات ، وانتهت — على حد قوله — بأنه رجل لا يصلح للتجارة التي غازلها على غير وصل ، فانقلب الى الصحافة والادب ، يحقق في ميدانهما طموحه الذي اخفق في العمل التجاري ، ونما وترسخت قدمه في محراب الحرف ، والكلمة والصورة .

وطموح الشباب لا يحد ، لانه جذوة متقدة ، واحساس طاغ بالرفعة والعلو ، واستمرار شهي المغامرة والانتقال . وهكذا اقبل نظير زيتون وهو في غمرة نشاطه وقوته واندفاعه الشاب يعمل في الصحافة وفي الادب وفي الترجمة وفي الخطابة يعطيها جميعا من ذات نفسه ، ويخلص في خدمتها اخلاص الصوفي في عبادة ربه ، ويبعد عن قداستها الطفيليين والدعين ، ويروض قلمه على الانسجام المتناسق مع صفات وخصائص كل منها ، حتى يوفيها حقها منفردة ومجموعة ، على الصعيد الخاص ، وعلى الصعيد العام .

ولكن ... كيف كان اسلوب نظير زيتون في جماع ما دبج وخطب وترجم ؟ ...

ومعروف ان الفقيد كان في مقدمة اعضاء العصبة الاندلسية العاملين في المهجر الجنوبي ، وهذه العصبة كانت قاعدة انطلاق وابداع ، ومركز اشعاع وتحرر من الرواسب . نعم انها محافظة من حيث التقيد بقواعد اللغة العربية ، ولكنها غير محافظة من حيث الانعتاق الفكري ، والادبي ، وانما هي مجددة تجديدا بناء فللعقل عند اعضائها مكانته العليا وحرمته فلا يمتهن ولا يشك بقدرته ، وللخيال الوثاب المعتدل ، دوره واصالته في العمل الادبي دون تجنيح [illegible] معيب ، وللديباجة العربية الصافية قدرتها على التعبير الواضح الجميل .

وقد كان اسلوب نظير زيتون في جميع ما انشأ وصاغ يقبس من هذه الصفات ، ويسير على هديها ويتقيد باصولها ، فهو اسلوب تتآخى فيه الرصانة والسلاسة في وحدة متآلفة ، مع دقة متناهية في استعمال الالفاظ وانزالها في اماكنها واحياء الممات منها والنادر ، شرط ملاءمته لعنصر التجديد ، وانسجامه مع معطيات التفكير والثقافة في العصر الحديث ، وهو اسلوب يجري هونا في غير عناد ومماحكة وتمحل ، ومتكأه الاول ، اصول متينة من علوم اللغة ، واشراق زاهر في التعبير والتصوير ، مع تكوين عقلي ، وحجة متينة ، واعتماد كبير على الجدل والمناقشة والتحليل والمقارنة ، تسربت اليه ، بلا شك ، عن طريق التفكير والنهج الفلسفي (١) . وانك واجد في طريقته الكتابية، اسلافا قوية ، من القديم والحديث تدل على اتساع ثقافته وتنوعها ، فقد تأثر من الناحية البيانية ، والبلاغيـة بالجاحظ والتوحيدي والاصفهاني وابن المقفع ، وكان للقرآن الكريم والحديث الشريف ، ونهج البلاغة اكبر الاثر في نفسه اسلوبا وفكرا ، كما تأثر في بدء حياته الادبية بالريحاني ونعيمة والعقاد من المحدثين . (٢)

وقد وصف اسلوبه مرة فقال : « اما اسلوبي المتطور ، لا آخذ بالقديم على علاته وهو الى البداوة اقرب منه الى الحضارة ، ولا انحو نحو المجددين على علاته وهو الى الفرنجية والركاكة اقرب منه الى الفصاحة والبلاغة . (٣)

وقد استمر نظير زيتون طوال حياته الادبية يسير على هذه الطريقة الاسلوبية المرسلة في الانشاء المصقول العذب الرشيق حتى كان عام ١٩٤٨ ومنذئذ حدث الانقلاب الاكبر في اسلوبه ومال كلية الى السجع ، يعتمده في مقالاته الذاتية والوصفية والنقدية ، وفي رواياته وقصصه ، وفي خطبه المنبرية ومرثياته ، وحتى في رسائله الخاصة الى الاصحاب والاصدقاء من الشعراء والادباء .

وقد لفت هذا الانقلاب او التحول في اسلوب نظير زيتون ، نظر عدد من النقاد وكثير من القراء في المهجر والوطن ، خاصة وان السجع في العصر الحديث اضحى حلية قديمة وتزويقا لا غناء فيه ، وهو من مخلفات عصور الانحطاط في تاريخنا الادبي والفكري والسياسي .

والجنوح اليه في هذه الفترة الحديثة من حياتنا يعد ردة ادبية الى عصور واساليب تحنطت وباخ معناها وتأثيرها وفقدت جاذبيتها ورواءها وباتت تشكل سقما وفسادا ، في الذوق ، بعد ان بلغ التجديد مداه وطغت على الفكر العربي مدارس مستحدثة في الفن والادب ،

• القيت هذه الكلمة في قاعة النادي الارثوذكسي بحمص في الاول من ايلول ١٩٦٧ لمناسبة الاحتفال بذكرى اربعين فقيد الادب العربي في المهجر والوطن الاستاذ نظير زيتون .

ومذاهب مختلفة في المحتوى والشكل ، كالرمزية والبرناسية والطبيعية والواقعية .

وقد تعرض نظير زيتون من جراء استعماله لاسلوب السجع ، والاصرار عليه دون أية مهادنة ، لحملات شديدة الوقع من بعض النقاد الذين وجدوا في هذه الظاهرة الاسلوبية ، احياء للقديم مات في عصر متجدد ، متطور ، منفتح آخذ بأسباب التقدم والرقي والانطلاق في شتى مناحي الحياة من اختراع وعلوم ، وفلسفة وفكر ، وأدب وشعر.

غير ان احد النقاد وهو الاستاذ عيسى الناعوري ، لـم يهاجم ظاهرة السجع في اسلوب نظير زيتون ، ولكنه استغربها في كتابه « ادب المهجر » اثناء حديثه عن اديبنا الراحل ، اذ يقول : « ولست ادري ما الذي اغراه بهذا الاسلوب وهو الاديب الصافي الديباجة ، الناصع البيان ، حتى كانت مرثيته الطويلة للمرحوم عادل زعيتر مجموعة متعبة من الجمل المسجوعة المتلاحقة ، ليس بينها وبين اسلوبه المألوف الحبيب أية صلة » . (٤)

ولكن من الصعوبة بمكان ، وقبل ان نحكم على هذه الظاهرة في ادب نظير زيتون ، ونلوم خطوطها ومراسماتها ، ونحدد صفاتها وميزاتها ، ان نبحث عن السبب الذي حدا بالفقيد لانتهاج هذا الضرب الاسلوبي الشاق ، واعتماده في معظم كتاباته حتى آخر رسالة كتبها قبل وفاته وجهها للاستاذ الكبير « ألبير أديب » (٥) وان نتحرى ايضا موقف نظير نفسه من هذا اللون من أدبه ، وفلسفته لجوانبه وفلذاتها وتعليلاتها ! ...

وأحب ان اشير هنا الى ان اهتمامي بدراسة ظاهرة السجع في اسلوب نظير زيتون قديم قدم صداقتي بالمرحوم ، فطالما لفتت نظري غرابة آثاره هذه الظاهرة ، وقد ناقشنا طويلا وعميقا فيها ، وكان من رأيه في الحوار الذي اجريته معه ، ونشر في مجلة الاديب الغراء (٦) ان « السجع لون عربي اصيل عرفه العرب في الجاهلية والاسلام وعصوره المتأخرة . يكفي ان نذكر القرآن الكريم لتتجلى لنا روعة السجع ووقعه الاخاذ . والسجع كما افهمه وأزاوله منزلة بين النثر والشعر ، والنثر العادي الدارج او اذا شئت سمه النثر الصحفي ، سهل المنال ، خفيف الاحمال ، ميسور الوصال ، يجري هينا على كل قلم . والسجع الذي التزمه احيانا وفي موضوعات معينة ، يختلف كل الاختلاف عن سجع المقامات ، حيث لا تتعدى السجعة الواحدة قرينين او ثلاثا بمعنى واحد تقريبا اما اسلوبي في السجع فيتألف في السجعة الواحدة الى عشر فقرات او اكثر ، ولكل فقرة انطلاقة ، ولكل فقرة اشراقة ، ولهذه حلاوة ، وللاخرى طلاوة ، في تناغم وايقاع ، ولا اعرف كاتبا مارس هذا الاسلوب في سجعاته ، ولعله طراز فني جديد في ادبنا الحديث ، وان كان كثيرون يمقتون السجع ويعدونه من مخلفات العهد البائد لما فيه من حشو وتكلف يبعدانه عن الابداع ، فالسجع كما قلت منزلة بين الشعر والنثر ، وانسا لا نستطيع ان نرتفع الى الشعر – لا النظم – لنعبر عن افكاري واحاسيس نفسي ، ولا ارضى لادبي ان اهبط به الى النثر العادي الدارج الذي يعالجه كل قلم بسهولة ، فكانت لي تجربتي في السجع الجديد المتناغم الذي تؤلف فيه السجعة الواحدة مقطعا كبيرا وكأنه مقطع قصيدة واحدة . قلت انها تجربتي ، فسترى ما يؤول اليه امر هذه التجربة» .

وهكذا نقع من خلال هذا الجواب على الاسباب التي دفعت نظير زيتون الى اتخاذ السجع طريقة في التعبير ، انه البحث عن شخصية ادبية ذات اسلوب متميز ، في زمن يكتب فيه معظم الكتاب والادباء نثرا واحدا ، يختلف باختلاف الروح والقبضة طبقا لاختلاف النفوس والنوازع والتأثيرات الحياتية والثقافية .

ومعروف ان الاسلوب – كما يقول بوفون – هو الكاتب ، والعبقري هو الذي يبتدع اسلوبا جديدا لا اثر فيه لتقليد هذا او ذاك ، واديبنا الراحل كان يعتبر منحاه في السجع نوعا من التجديد الملتزم المتروي او سمه اذا شئت (التجديد الكلاسيكي) .

قلنا سابقا ان نظير زيتون استعمل اسلوب السجع في السنوات الاخيرة من حياته في عدد من الفنون الادبية غالبا ، فهل اعاقه هذا الاسلوب بكل قيوده الثقيلة وشروطه القاهرة عن التعبير الواضح المنسرح عن افكاره واحاسيسه وانطباعاته ؟ وهل شل من فعاليته الفنية على حساب التعميق والرصف الموثق للالفاظ ؟. ان هذا السؤال يدفعنا الى استعراض عينة من آثاره ، وتحليلها ، ولكننا هنا لسنا في سبيل ذلك ، غير اننا نستطيع ان نقول بوجه عام ، ان قلم نظير زيتون المرن المتمرس ورصيده الفكري ، وقدرته البالغة على صب المعاني بعد معاورتها ، وثقافته الموسوعية – وهو عضو المجامع اللغوية في كل من دمشق والقاهرة – كان اكثر عملقة من مارد السجع بسراديبه وسجوفه ومغالقه ، واسمع معي مقدمة نقده لمجموعة شعرية بعنوان « نفح شرقية » للاستاذ امين اليوسف الريحاني (٧) : « مـا اطلقك انطلاقة الريحاني الكبير سميا ، وما اجدرك بعهده وفيا ، ولادبه وليا ، وعلى تراثه الرائع وصيا ، وبمثاليته عليا ، ولرسالته العربية تليا هديا ، ومن كوثره شاربا رويا . »

او قوله في مقطع آخر من المقالة نفسها « ولست كما تعلم ممن يطلقون كلامهم جزافا ، ولا ممن يغرون بالآخرين خفافا ، ولا ممن يرسلون كيل المديح طفافا ، ولا ممن يزعمون مسح الاسماد خرافا ، لا ، لست واحدا من هؤلاء ، ولكنني ممن يطربون لاد المواهب ، ويحرصون على الكشف عن المواهب السوانح ، المهملات الضائعات في مطاوي الغياهب ، او المتصرفات عن المشارق الى المغارب » .

وواضح ان هذه اللآلىء المنثورة من حنجرة عربية اصيلة ليست نثرا عاديا سهلا ، يجري على كل قلم ولسان ، وانما هي قوافي قصيدة منسرحة تنثال فيها الصور والتخيلات والكنايات وسواها ، والشفافية الشعرية المرهفة ، وتحمل معظم صفات الاسلوب السجعي عند نظير ، من نفس مديد ، في الفواصل والفقرات ، وتقليب واقتناص المعاني المبتكرات ، واختيار انيق اللفظة الموحية المصورة ووقع موسيقي تتآلف فيه ايقاعات الالفاظ وانتقاءها مع الانطلاقات الفكرية وظلالها .

وهكذا يحق للاستاذ جورج صيدح ان يعرف نظيرا واسلوبه وشخصيته الادبية والقومية بقوله « اديب حمصي كبير ، يعد من امراء البيان المنثور ، لا في المهجر فقط ، بل في الاوطان العربية ايضا » . (٨)

ولنا ان نقول اخيرا ، ان ظاهرة السجع ، في اسلوب نظير زيتون ، هي تجربته الخاصة ، اختارها والقا من اختياره ، وظل مثابرا على تطبيقها ، وتبنيها حتى وفاته ، ودافع عنها بكامل حججه وقدراته ، فاشتهر بها ، واصبح علما عليها . وللنقاد الادب ممن يهتمون على وجه الخصوص بالادب المهجري ودراسته ان يقولوا رأيهم فيها ، ويسهموا معنا في تقويمها .

حمص – سورية — ممدوح السكاف

---

(١) انتخب نظير زيتون مدة خمس عشرة سنة متوالية خطيبا للنادي الحمصي في : سان باولو : بالبرازيل – راجع « الاديب » ابريل ١٩٦٧ في فصل « حوار مع الاديب المهجري نظير زيتون ص ٥٦ اجراه ممدوح السكاف » . (٢) المرجع السابق . (٣) في مقابلة مكتوبة غير منشورة اجريتها معه في حمص الادبية اللبنانية صوتيا صيف ١٩٦٤ (٤) راجع « ادب المهجر » الاستاذ عيسى الناعوري ، ط : دار المعارف بمصر – ص ٥٤٣ . (٥) راجع عدد تموز من « الاديب » ١٩٦٧ . (٦) راجع عدد نيسان من « الاديب » ١٩٦٧ . (٧) راجع عدد مايو من « الاديب » ١٩٦٧ ص ٤٢ . (٨) راجع : « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » الاستاذ جورج صيدح – ط : ثانية بيروت ١٩٥٧ – ص ٤٣٦ .

وجم الجميع عند سماع النبأ . ولم يصدقوه في أول الامر .. لكن المذياع ظل يردده مرارا .. فالمدينة يتهددها زلزال خطير . قيل النبأ بلهجة حازمة جازمة . في الساعة الرابعة والنصف مساء اليوم ، ستبتلى المدينة بزلزال خطير . تناقل الناس الخبر بقلق وذعر وهم لا يدرون حقيقة الخبر تماما . صغار السن سألوا :

— ما معنى كلمة « خطير » ؟ !

وكانت الأجوبة مختلفة . صوت عجوز واهن يغمغم :

— ستطمس معالم مدينتنا .. مدينة « السلام » ..

وشاب فتى يصرخ : — أنقف عاجزين ؟ ..

وآخر يقول في حسرة ومرارة :

— لن يكون هناك سلام ... ! .

وبسرعة ، امرت الحكومة الاهالي بالهجرة ، فادركوا ما ذهبوا اليه من ان مدينة « السلام » ستفنى عن آخرها . تحولت البسمات الى دموع مريرة ، وانقلب الفناء بكاء . الكل في حالة هياج وذعر ، الكل احس بالخطر الزاحف كالتنين نحوهم مع عقربي الساعة ....

يتفرق الناس في حيرة ، ثم ما يلبثوا أن يتجمهروا .. وفي كلتا الحالتين كان الموقف اكبر من ان يتناقشوا فيه او يلفوا حوله . تلتقي العيون في العيون ولا تعي حقيقة الأمر او تدرك حدود المرئيات او تتعرف على الاشخاص . كل واحد منهم لا يتبين من حوله من الناس ، وانما تتراءى في مخيلته صورهم كاشباح متحركة يرغم الضياء الذي عم ارجاء المدينة .

★

تعانقا في صفاء ، والتقت الشفاه فعبرت تعبيرا جميلا عما عجز اللسان عن البوح به . لكنهما بوغتا برسول يقلق خلوتهما .. ركض ناحيتهما صائحا :

— زلزال خطير .. ستفنى .. ستضيع .. لك الله يا مدينة السلام ..

وفجاة ، تغير الموقف .. تجمدت الشفاه المتعانقة . لم يقربا على الانعتاق ، فظلا في عناقهما كانهما لن يريا شمسا بعد الآن . لم يحفل الرجل بعناقهما ، وانما هز سالم من ذراعه :

— اقول زلزال خطير ، افق ..

تنبه سالم بفعل الهزة العنيفة ، وقال :

— نعم . زلزال خطير .. لهذا جمدت ..

تساءلت اخلاص مبهورة : — كيف ذلك !؟ .. كيف ذلك !؟ ..

الزلزال

بقلم حسني سيف لبيب

عاد الرسول الى الحديث فقال :

— ستفنى مدينتنا الجميلة .

بكت اخلاص وتشنجت ، ومن خلل دموعها قالت :

— لا اكاد اصدق ، فمدينتنا اجمل ما في العالم .. والرب حاميها ..

نظرت الى سالم فالفته ساهما لا يقوى على الوقوف ، ارتكن الى جدار البيت في شبه اغماء وانثالت من فمه كلمات كثيرة عن جمال المدينة ، وينابيع المياه التي تخلب اللب ، والربيع الدائم ، والناس الطيبين الذين احبوا بلدهم واعطوها

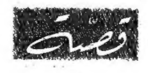

من عمرهم الكثير . ولم يضنوا عليها بما تريد من كفاح وعمل وايثار .

ظل يغمغم بكلمات كثيرة في تلاحق اضناه واعيا قواه لتسقط على الارض اعياء .

استبد الذعر بالجميع . تساءل الناس عما يجب ان يفعلوه . لكن الجواب ليس جاهزا . ولا احد يقوى على التفكير . فالخطر يزحف كالتنين ، وبمرور الزمن يشتد الخطر ، ويحين الحين لانفجاره المروع .

تلقى الشيخ عبد المهيمن النبأ في هدوء ، ولم يرتجف ، ولم يهتز له رمش . اطلق لفكره العنان . وما هي الا ساعة من التامل والتفكير الشاق ، سرعان ما اهتدى بعدها الى قرار وثق فيه .

الناس تردد اسم الشيخ ثم تمرض عن التفكير فيما ينتويه . لقد احس الجميع ان الشيخ ليس في مقدوره أن يفعل شيئا سوى الصلاة وتفويض الامر الى الله حامي حماها من كل سوء ، فلم يفكر احد في اللجوء اليه . وتيقنوا مما ذهبوا اليه لما لمسوه من انزواء الشيخ في هذه الساعات الحرجة الحاسمة .

خرج الشيخ من عتبة داره المتواضعة ، وقد قيل ان عمر هذه الدار يربو على الثلثمائة عام ، وان لها تاريخا عظيما .. وما ان بدا للعامة حتى التفوا حوله سائلينه عن المصير . جاء الجميع سراعا وفي قلوبهم خفقات امل ولدت فجاة ، بل ان بعضهم ذهب به التفاؤل الى بعيد ، فادرك ان خلاص المدينة في يد هذا الشيخ الحكيم . الكل جاء ، الرجال والنساء والاطفال . واكتظ الجميع في الساحة الواسعة التي تواجه الدار ، واشرابت الاعناق وتطاولت كي يمعنوا النظر في الشيخ ، وحين القوه هادئا سكنت زوابع القلق وعواصف الهياج : ففي الافق ثمة امل ما يأتلق .

صمت الجميع . وارهفوا الحس

ما يقوله الشيخ :

ـ ماجدوى الكلمات يا احبائي!.. لكنني احب ان تكونوا واثقين من قدرتكم على الاختيار .. فلا توجد قوة ايا كانت جبروتها تستطيع ان تجبرنا على امر ما . احرار نحن يا احبائي ، حتى في هذه الظروف .. احرار نحن يا احبائي . واني ارى ان هناك طريقين علينااختيار احدهما .. اما ان نبقى كما نحن او نترك مدينة السلام .. اذا بقينا فسنضمن حياتنا على هذه الارض . وفناءنا فيها .. وسنكون جزءا من تاريخ مدينة السلامالعظيم . واذاتركناها؛ فسنكون قوما غرباء بلا تاريخ من ارض أخرى غريبة علينا .. فماذا تختارون ؟ .

لم يتدبروا الأمر او يفكروا فيه وانما اجابوا بصوت واحد :

ـ سنبقى في المدينة ، ولـن نغادرها .

فاضت عينا الشيخ بالدموع وقال :

ـ وانـا اخترت نفس الشيء ، لكني طلبت منكم الاختيار حتىازداد بكم ايمانا .. ولقد كنت على ثقة مما تختارون .. امضوا يا أحبائي في شعاب المدينة ، واعملوا ، وغنوا ، واسجدوا لله .. فما احسب ان الزلزال بجبروته وعنفوانه سيبيد احرار العالم ، أو يطمس معالم مدينتكم الجميلة .

لكن سالما لم يوافق .. شد على القوم .. هرع الى الشيخ وهزكتفيه بقوة وهو يصرخ :

ـ أتنفى !.. زلزال يدمرنا ، ولا نتزحزح .. اهذه هي الحكمة ايها الشيخ ؟ !.

رد عليه الشيخ : ـ وهل من الحكمةايها الشابان نتركحضارتنا؟

ـنحن قادرون على صنعها من جديد .

ـ نحن جزء من هذه الحضارة ، ايها الشاب .

ـ اذا نجونا نحن . نكون قد انقذنا جزءا من حضارتنا . اما اذا بقينا فلن تكون ثمة حضارةولن يذكرنا التاريخ .

ـ التاريخ ما التاريخ يا ولدي ؟ انه صنيعة الاحرار . وما لم نكن احرارا ، فليس هناك ثمة تاريخ لنا .. وحرية الانسان هيفي قدرته على الاختيار .

صرخ يائسا :

ـ عاطفيون انتم . لكن لا .. مدينتي الجميلة لن تزول . لن تفنى .. سيعاد بناؤها من جديد . ونحن بناؤوها .. وعلينا ان ننج من المصير الكئيب ، ثم نعود اليها من جديد . ونعمل ، ونبني ، ولـن نيأس .. والآن ، سأقنع الناس بالهجرة ، فقد فضلوا البقاء على الرحيل خسرونا منك .

ابتسم الشيخ ابتسامة هادئة ، ولم يعقب بشيء .

مضى سالم في ثورة وقوة . إخذ يقنع الناس بالرحيل ، وما من مجيب !.. فلم ييأس ، استعمل شتى الطرق ، وما من مجيب !.. الكل يقولون له : لا .. ولم يتزحزح واحد منهم قيد انملة . حتى أبيه ، رفض الرحيل واتهمه بالسذاجة وعدم التمييز . وامه اصرت على موقفها ووبخته ..

ـ يا لك من احمق !.. انترك ارضنا الحبيبة ، ولعلنا اننا سنعود يوما ما اليها ؟.. يا ولدي ، وليأت الزلزال بقوله وجبروته ، فلن يقهرنا زلزال ما دمنا صامدين ..

وحين لمس الاب عناد ابنه قال له :

ـ يا ولدي ، كم أشفق عليك!..

اعتراه اليأس ، واقترب من حافة الجنون .. اخذ يجوب انحاء المدينة ويتعرف على معالمها وهو لا يكاد يصدق ان زلزالا سيقع ويحيل الارض الى خراب ودمار . حقا ، كم هي جميلة !. وادرك السببفي اصرار الناس على البقاء ..: مريرة هي الحياة خارج ارض السلام .. لكن !.. صوت المنطق يصخب في اعماقه . فلم تبق سوى ساعات قليلة ثم تحدث الطامة الكبرى !..

بدأ رجال الشرطة يصنفون القول مع الأهلين . بعد ان استبان الموقف والفضح ، حتى يتنازلوا عن قرارهم ويتركوا المدينة ، لكنها محاولات غير مجدية .. فالكل مصممون ، باستثناء سالم الذي راح في نوبة جنون يائس .. اطلق احد رجال الشرطة الرصاص على شاب ثائر حتى يكون عظة للجميع ، لكن شيخا مسنا اقترب من الضابط وقال :

ـ اذا اردتم أن تجبرونا على تغيير موقفنا ، اقتلونا جميعا .. وحينذاك لن تحقق الحكومة هدفها الذي تبتغيه وهو حمايتنا .

أجاب الضابط في صلافة :

ـ هناك حل أفضل ، وهو أن ناخذكم بالقوة في عربات مقفلة الى خارج المدينةفي ظل حراسةمشدودة .

ابتسم الشيخ وقال :

ـ لن تجدوا من تضعونه في مثل هذه العربات الحديدية .. وسنفضل الموت في بيوتنا على تركها ، وقد اتفقنا جميعا على الانتحار اذا ما حاولت الحكومة أجبارنا على ذلك .

ـ يالكم من قوم صامدين !. ناس يجابهون الموت بمثل هذه القوة ..شيء لايصدق .. لقد .. لقد..

كان الضابط مترددا حائرا ،لقد قرر شيئا لكن خطورة هذا الشيء جعله مرتبكا غير قادر على البوح . صمت قليلا .. ثم حسم الأمر بقوله :

ـ لقد قررت ان ابقى معكم ، ومن يشاء من جنودي .

وترك الضابط لجنوده حرية التصرف في مصائرهم ، فاصروا جميعا على البقاء .

تناهى الى سالمما قرره الضابط، وجنوده ؛ فزعق فيه :

ـ حتى انت ، ايها الضابط تلقي بسلاحك وتترك اهلنا في غيهم وعماهم !. حتى انت تتخلى عن المسؤولية !.ـ

ـ ابتسم الضابط وقال في ثقة : ـ يجب ان نصمد .

ساءت حاله ، وتحول في هذه الساعات القليلة الى رجل آخر يهذي بالكلمات بلا رابط او هدف . ورن صوت في اعماقه يقول : هؤلاء القوم خائنون ، يتمسكون بمدينتهم الجميلة حتى الموت ، ولا يتزحزحون. جميل منهم هذا الصمود ، لكنه ممقوت .. انه يعني الفناء ،الفناء.. وانا اكره هذه الكلمة ، امقتها .. الهي .. النجاة . النجاة ..

الروابي الخضر ،والمعابد والمنائر، والدروب .. وكل ما شيدناه سيتحول الى تراب وخرائب ، حتى الناس سيصبحون رمادا .. ولن يكون لنا تاريخ او مستقبل ، اولتكون لنا ذكرى . ستختفي مع مجدنا وقليل عظمتنا . لكن لا ... يجب ان نبقى ان نعيش .. يجب الا نموت !. هذا الشيخ اللعين اصاب الجميع بجرثومة الفناء ، نفث سمومه في صدورهم ، يا له من شيخ متهالك متفان !.انه لا يحس بما نحس به نحن الشباب من امان وآمال واحلام ، ولا يدرك كنه رغائبنا التي نعلق تحقيقها الى مستقبل الايام .

وداعبت خياله صورة اخلاص ، فانقبض قلبه للمصير المظلم الذي يتعرض له حبهما الوليد . اخلاص هي الوجه المشرق للحياة وسط هذا الخضم الجارف من التعصب لموقفهم الاحمق . سيذهب اليها ؛ لكن الآن .. عامل الوقت مهم . ولكن . ماذا يقول له ؟. أيا ترى بالها عن موقفها ؟.. هل هي الى جانب هؤلاء الحمقى .. ام الى جانبه ؟. لا.. ليس ينبغي عليه ان يسأل .. هي حتما الى جانبه ، هي تحبه ولا تتخلى عنه ، وهي ايضا قطعة غالية من روحه . لا تعيش الا به ولا تجد طعما للحياة بدونه .

راودته فكرة راقته وتحمس لها. وفي الحال توجه ركضا الى اخلاص. غمرت البهجة كيانه كله ، فاخذ يغني . ولما لحظ الناس تبدل حاله ايقنوا انه تخلى عن موقفه وآمن بموقفهم الجريء ، والدليل على ذلك تلك البهجة التي انطوت عليها سرائره، كما كان الغناء صورة واضحة ودليلا اكيدا على ما ذهبوا اليه . ارتاحوا لذلك ولم يمتنعوا القول معه او يسخروا من جنونه . لم يتمالك احد اصدقائه نفسه حين التقى به ، عانقه وقبله ، ثم قال :

ـ حسنا فعلت .. الذاهب اليها، الى اخلاص ؟..

اوما سالم مبتسما .

ولم يحاول صديقه ان يسأله عن سر هذا التغيير ، حتى لا يذكره بالجنون الذي مسه منذ حين ، مما قد يسبب الالما ، فتركه على امل في اللقاء قريب .

عاود الغناء ، كان الطريق الى بيتها محفوفا بالمروج الخضر والترع المائية الهادئة التي يسبح فيها البط في وداعة وهدوء . ولم يكتف بالغناء ، فقد تناهى اليه صدى موسيقى رقيقة كأنغام السريع وزغردات ضوء القمر الفضي .. موسيقى تتدفق نغماتها في تتابع شيق وايقاعات راقصة .. تناهت اليه فشنفت اذنيه وبعثت البهجة في كيانه . فتجاوب معها ورقص رقصة الحياة التي لا يعرف لها انتهاء ، وضمنها كل ما في احساساته من امل في مستقبل الايام .

وفجأة راها .. راى اخلاص تنهب الطريق في الاتجاه المعاكس فاحتضنها في شوق ، وقبلها في لهفة . لكنها كانت جسدا جامدا ، ولم تتجاوب مع فرحته الغامرة وحنينه الطاغي . قالت له :

ـ كنت ذاهبة اليك .

ـ القلوب عند بعضها . كنت اقصدك كي نتفق على ان ننجو نحن الاثنان معا بتهددنا من فناء ..

ـ ننجو نحن الاثنان ؟.. يعني نهرب .. ولماذا نحن الاثنان ؟..

ـ كل الناس لا يريدون ...

ـ ولماذا ننفرد نحن بمصير غير مصيرهم ؟.

ـ من اجل حبنا ..

رمقته بعينيها وتملت فيه قليلا . حاولت ان تهرب من عواصف القلق التي تؤلم خافقها وتضنيه ، قالت لسالم :

ـ حبنا ؟.. ما الحب ؟.. يتهيأ لي اننا نواجه كلمة لم نتعرف بعد على معناها .. ما معنى الحب ؟..

احساس غريب ينتابني .. اتدري جوابا على هذا السؤال ؟! .

ـ الحب ؟.. هو الحياة ..

ـ وما الحياة ؟.

ـ الحياة ؟.. هي الحب ..

حملقت في عينيه كأنها تسبر اغوار نفسه ، وقالت في قوة :

ـ الحب هو الحياة ، اجل .. لكن الحياة هي الأهل والوطن .. ولا بد من الاثنين لتكون هناك حياة وحب .

اجمد في مكانه ، ولم يقو على التفكير او الكلام ، وتبدل الموقف تماما ، وقال .

ـ ماذا تعنين ؟.

ـ اعني ، اذا هربنا نحن الاثنان، من اجل حبنا كما تقول ، فسنفقد الاهل والوطن .

قال في شبه رجاء

ـ اخلاص : ارجو ان تفهميني .. النجاة لا تعني الهروب .. حتى هذا ، قد يكون موقفا شجاعا . ولست اريد النجاة من اجل حبنا فقط . ولكن من اجل مدينة السلام، مدينتنا الحبيبة .. حقا سنعيش غرباء فترة من الزمن ، لكننا سنرجع ونعمر المدينة ونبث في نسلنا نفس

المعاني التي تعيش في قلوب اهلنا الطيبين . انظري الى الجبل المحيط بنا . والى الطبيعة المرفهة . والى الجداول النسابة في الوديان الخصيبة والزروع الخضر . والى الناس والعمائر والبنايات الرائعة .. اني احفظ معالم المدينة . حتى بيت الشيخ عبد المهيمن بما يحمله في طواياه من غموض واسرار . احفظ كل ذلك وتعيه ذاكرتي ... وحتما سنرجع يوما ما الى هذه الارض ، فالارض لا تفنى مهما اصابها ، وسنشيد مدينتنا من جديد .. نفس المدينة .. لا .. اني اذهب الى بعيد ، فسابث في الابناء — ابنائنا — نفس المعاني الجميلة التي ولدت هنا وتعيش هنا . اخلاص ، انها مهمة كبيرة تخلى عنها الجميع ، لكني متمسك بها ، وارجو ان تساعديني على ادائها .

صمتت اخلاص ، وكان صمتها ذاته لا يبعث على الارتياح . فقال سالم في شبه يأس :

— افهم من صمتك انك ترفضين!

خانها الموقف ولم تستطع مغالبة دموعها

— لاول مرة ارفض ... ارفض باسم الحب .. حبنا يا سالم ولد هنا ، ويجب ان يبقى هنا ، حبنا لن يعيش في ارض غريبة . حبنا تستمده من ضياء هذه الشمس ، ومن قلوب هؤلاء الناس الطيبين ، ومن هذه الارض الجميلة بروابيها ومروجها وعمائرها".

نظر الى ساعته ، وقال في قلق :

— الوقت لا يسعفنا . الساعة الآن الثانية . لم تبق سوى ساعتان ونصف وتكون الطامة الكبرى . الناس منشغلون عن الحدث الجلل بالعمل والغناء كعادتهم ، وكأنهم والقون من الحياة ..!

— لماذا الآن نفقد نحن ثقتنا بالحياة

— حتى انت يا اخلاص !.. حتى انت ..! لا احد معي .. لا احد معي

ولما احس بالبكاء يخنق صوته ، فر من امامها دون ان يتفوه بشيء . توجه الى بيت الشيخ عبد المهيمن . مساقا الى غريزته . فقد احس دائما خفيا يمي عليه ذلك : تطاوعه بينا الدموع تنهمر في سخاء وخيل اليه انه ملأ المدينة كلها بانهار من دموعه .

في الساحة الكبيرة التي تواجه البيت العريق ، تقبع شجرة ضخمة يبدو ان عمرها هو عمر هذه المدينة . تامل الشجرة وتملى في جذعها الضخم العتيق ، والفروع الملتوية ، فاحس برهبة وغموض ... احس برهبة من هذا العمر المديد الذي عاشته الشجرة ولم تيأس بعد من الحياة . ترى ، هل سيفنيها الزلزال ام انها اقوى !! هي شجرة صامدة لا تهرم او تموت ابدا ... فكيف يقضي الزلزال عليها !! شيء لا يصدق . كما احس بخوف من المصير المجهول الذي لا يرحم . مصير كئيب لن يرحم شيئا في المدينة ، حتى هذه الشجرة برغم صمودها وعشقها الحياة ! . وهذا البيت العريق ، كيف يصبح حطاما بعد قليل من الزمان !! كيف يطوي معه السر الذي يخفيه !!

الشجرة والبيت سلبا لبه ، واكتنفت مشاعره احاسيس غامضة لا تستبين في صور محددة واضحة ، وانما تتداخل وتختلط ببعضها فلا تكون شيئا ما . وترآت في خاطره معاني الحب والحياة والصمود والموت والنجاة ، واشياء كثيرة استعصى عليه ان يفهم مدلولاتها الحقيقية وانما اختلطت كل هذه المعاني في وعاء نفسه الثائرة اليائسة . عقربا الساعة يدوران . وقلبه يخفق خفقات سريعة تشعره ببشاعة التنين الزاحف الى قلب المدينة .. وزغردت المعاني المختلطة في اعماق نفسه : واصبحت كلها تعني شيئا واحدا هو مدينة السلام . اما الشجرة والبيت ، فلن يزولا ، لن تفنيهما اية قوة طائشة .. حفر على الشجرة والبيت عبارة «عاشت مدينة السلام» ثم ضاع مع المعاني المختلطة في صمت هائل .

وقف الشيخ عبد المهيمن في وقار وهيبة قبالة الجسد المسجى في ظل الشجرة العتيقة . احتوى الظل الجسد كله .. ترقرقت العبرات في مقلتيه .. وتمتم :

— يا له من مسكين !.. لقد صدق الاكلوبة الكبرى !!

وسرعان ما انتشر النبأ في ارجاء المدينة ، وتجمهر الناس في الساحة الكبيرة ، وارتجف الجميع لما حدث ، وهم بعضهم بالبكاء .

الهل اخلاص ما حدث ، وكان المها ابلغ من ان تعبر عنه الدموع فاحتبست في المآقي دموعا جامدة قاسية ، وكان عذابها اقوى من ان تعبر عنه بالصراخ فطوته في احشائها وبدت فتاة جامدة الملامح لا تعي كنه المرثيات ، ولا تفهم مما يتقوله الناس شيئا ، وبدت كغزالة شاردة هي الى الاموات اقرب . ذهب الشيخ عبد المهيمن اليها ليعزيها ، قال في صوت خفيض :

— يا له من مسكين !.. احب كثيرا وادماه الحب ، كان يحبك ، ويحب مدينته ، ويحبنا جميعا . لكنه احبنا الى درجة الجنون ، ويحق بنا ان نفخر باستشهاده ، فارضنا كانت في حاجة الى شهيد حتى يكون ايماننا اقوى واعظم .

ارتمت في احضان الشيخ ، ولم تقو على البوح باحاسيسها الدفينة المبهمة ، صاحت :

— خدعته الاكلوبة ...

— لا تحزني ، فلا بد من شهيد !.

تلالات الدموع الحبيسة ، لاول مرة . وبكت بكاء مرا .. امتزج الحزن بالامل الحلو ، وترقرقت على وجنتيها الدموع كحبات اللآلىء تمسحتهما في رقة واطلت بناظريها الى مشارف المدينة تملي فيها النظر ، فاحست بان حبيبها يعيش في المدينة الخالدة .. راح شهيدا ، لكن روحه الخالدة ترفرف في سماء المدينة وتسترق السمع الى اغاني الحب والحياة .

القاهرة حسني سيد لبيب

لنا بيت هناك

•

ثريا ملحس

•

كالح وجهي وقلبي فرقدان
عالق رمشي وعظمي فحمتان
قذفتها نار نابالم ..
ويدي كالخيط دقت كل باب
كل ما ابقيه امي
وامي وجهها بارد جمده غدر الافاعي
عظامه تنفك من هول القدر
سمعت بتشريدنا مرة اخرى
الطفل بلا أهل يركض نحو السراب
والاهل فرقهم برابرة الزمان
والارض دنسها قوم كفروا بالانسان
كفروا بالقيم ورب السماء
من زمان مسخوا شياطين
والشياطين مزقوا القلوب
والقلوب جوفاء فارغة
والصدور فورت .. بلا ضمائر
ركبوا فوق الانامل وحش القنابل
مضت امي قبل الصباح
اسمع الصوت يجلجل كالرعود
ارفع الصخر عن باب داري
صخر بلادي خرب
امشي وفي دروب حيفا الم الحصى
والحصى نار لهب .. في القدس وبيت لحم واريحا
في تلك الدروب امشي غريبا في دياري
وجوه الشياطين تسد طريقي
والوحوش تفتك باهلي
واهلي هناك واهلي هنا
اسال الناس في العالم
(والناس عيونهم طويلة كالجراد)
يمشون جوفا في التراب
اسال عن ام عن صديقة
والهواء ثقيل ثقيل رماد
والرياح بلا هبوب هدها الحريق
والشجر يتثاءب من الضجر
تحشرج الاوراق فيها كالغريق
انتظر .. وانتظر .. وننتظر
وجها يطل من ارضي الحبيبة
فلا الوجه وجهي ولا الخبز من الديار
(وقفنا في صف طويل

ننتظر دورنا ودور الآخرين
نشتري خبزاً من فرن بأريحا
ونركض في بساتين اريحا
نعد بياراتنا في اريحا)
لنا بيت هناك وتدنا اساسه
رفعنا فوقه الرايات عمراً
وفي القدس الحبيبة .. قرب اسوارها العتيقة
انتظر .. وانتظر .. وننتظر
الدار داري والاهل اهلي
والمقابر تملأ رحب الديار
امي واخوتي الصغار
كانوا بالامس لنا واليوم الدمار
مروا بنا يغنون الشجر ..
للبرتقال .. والبوملة .. والثمر
والناس في العالم دقوا نعش الضمير
ذربوه في المحيط
كتبوا عليه : هنا يرقد الضمير
ثم نقنقوا كالضفادع :
« السلام .. من اجل السلام قتلنا الضمير ! »
حياؤنا من القدر .. طاطات منا الرؤوس
حياؤنا من التاريخ .. قطع منا الانامل
حياؤنا من الضمير .. اعمى البصائر
رحنا نلوك جلودنا « بلو .. كنا »
لو كنا كالبرابرة الاكاسر
ندوس الحضارات في الماضي وفي الحاضر
اقالت اخلاقنا العتيقة
تضرب لنا المثل عب المثل
وتخزنا بالابر
وتمدنا باعصابها اوتاداً عميقة
نعتز بانساننا العربي والحروف القديرة
ونلتقي بصهيون الخبيث على ارضنا يجول
يغتصب الديار بلا حق يصول
كالبربر والغول .. يتحدون الوجود
يقتلون .. يفتكون .. يقتلون الحضارة
ونصرخ نحن ابناء الحضارة
ابناء الحق القديم .. ابناء الصدارة
ونصرخ في ضمير الغرب الذي موته السموم
سمومه حقد صهيون..والكذب والرياء والوقاحة
بالامس كنا نفرح بشبر من ارضنا
بالحي الذي شهد الولادة

بياراتنا كانت كبيرة
واليوم قطعها اللصوص
مصمصها الدود وخربتها القذارة
واركض بالقلب الى نابلس
اغيب في ملاويها والتلال
لا اصدق الاذن ولا العين
كذب اللصوص كذب الخبر
وغزة حصن منيع لا يضيع
الى متى نخرس .. نسكت القلب العنيد ؟
الى متى يعبث المرابي في بيوتنا ولو خيمة ؟
حجراً تركته امام كل دار
قلت لكل حجر ان يقفز في فم الدخيل
داري .. فراشي .. الشيالي الصغيرة
سرقها اللصوص بلا قلب ولا دليل
يعبون يخورون في ظل النهار
قلوبهم ارانب وفي اليد سلاح بربر
جلودهم نخرة من زمان
لا ماء في عيونهم ولا حرام
كالذئبة ينهشون الصدور
كالثعابين يلتفون حول المجالد
عيونهم جيف .. قلوبهم اخرى
تاريخهم جيف سود وعار
والصوت من بعيد يحدو بنا
صوت امي واخوتي الصغار وكهولنا
حفلاً يركضون فوق القفار
يغنون : « عائدون نحن عائدون »
ويلعنون ويلعنون
فان كانت دياري خيمة أحب داري !
وان كانت يدي بلا سلاح
الا يحق لي سكنى دياري ؟!
ان كان قلبي جملا
الا يحق لي سكنى خيامي ؟!
ان كنت اميـاً
الا يحق لي العيش في دياري ؟!
والصوت من بعيد يحدو بنا
...... الصغار وكهولنا
. . . .
يغنون « عائدون نحن عائدون »
وفوق صدورنا جمر الحريق

ثريا ملحس

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

محمد الفرا ـ عبد الرحمن بشناق

بقلم البدوي الملثم

• • •

١ ـ الدكتور محمد الفرا

في نهاية القرن التاسع عشر وفي تباشير القرن العشرين حفلت جامعات اوروبا والولايات المتحدة بنفر من الشباب العربي الناهض ، قصدوها طلبا للعلم ، فكانوا طلائع النهضة العربية الحديثة .

وظل منسوب تلك البعوث العربية في ارتفاع مستمر ، حتى كان يتعذر عليك ان لا تجد في اية جامعة من تلك الجامعات طلابا من الاقطار العربية ، يتلقون العلم على نفقة حكوماتهم او على حساب ذويهم ، وكان لفلسطين العربية من اولئك الرواد حصة الاسد ، وكان للدكتور محمد الفرا موضع الصدارة من هذه الطلائع البارزة .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ذر قرن هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٥ وبمولدها شهدت منابرها العشرات من فحول الساسة العرب وهم يصاولون الاستعمار ويصاولون الصهيونية ، ويشرحون القضايا العربية جملة وتفصيلا ، ويصورون مبلغ الظلامات التي اصابت العرب في فلسطين ، وكان في طليعة اولئك الساسة الملهمين الدكتور محمد الفرا الذي عرف بنظره الثاقب كيف يهتبل الفرص ، ويغتنم الزمن الملائم لعرض كل قضية عربية ، وكيف يكسب لها الانصار ، ويدمغ باطل الصهيونية والاستعمار !

وبكياسة السياسي اللبق استطاع ان يلفت انظار الساسة في الندوة العالمية الكبرى الى الحق العربي ، ويستقطب الانصار المجردين من الهوى الى قضايا العالم العربي .

ولد « محمد » في خان يونس بفلسطين واكمل دراسته الابتدائية فيها ودراسته الثانوية في يافا عام ١٩٢٦ ، وتلاقى مع مجموعة من شبان يافا الى معالجة الامراض الاجتماعية والسياسية التي انتابت فلسطين وعرض المشاكل التي تواجه عرب فلسطين والبحث عن انجع العلاجات . وفي ذلك الحين كان اجماع كلي على الاستياء العام من الاحزاب العربية بفلسطين ومن النعرات العائلية والطائفية التي تستغلها بريطانيا وتشجع عليها لتفتيت وحدة الصف العربي .

وبعد جلسات عقدها اولئك الشبان قرروا ان خير السبل هو القضاء على تلك الامراض مهمـا كان الثمن ، وان على الشعب الفلسطيني واجبا قوميا ومسؤولية عسكرية يحملها القومية والاعداد ليوم التحرير ، وهذا يستدعي تأسيس منظمة قومية باسم « النجادة » واختاروا لها « الفرا » امين سر ، ونصت المادة الاولى من دستورها على ان « لا حزبية ولا طائفية ولا عائلية » فاغرت هذه المادة الشبان العرب بالانتظام في صفوفها ، واصبح لها فروع في المدن والقرى الفلسطينية ، واخذت الاحزاب باجتذابها الى صفوفها ، لكن القائمين على شؤونها اصروا على تطبيق دستورها ، وكان للفرا موقف صلب في هذا الشأن .

ومرت العدوى الى « الحزب العربي الفلسطيني » فاسس منظمة سماها « الفتوة » وواجهت هذه تنافس « النجادة » لكن سماحة الحاج محمد امين الحسيني ، نظر الى النتائج قبل الاقدام فسعى الى توحيد هاتين المنظمتين في منظمة اسماها « منظمة الشباب العربي » ، وتلافيا للمشاكل وقع الاختيار على الفريق المتقاعد محمود لبيب ، احد قادة الجيش المصري ، قائدا عاما للمنظمة الجديدة واختير الفرا امينا لسرها .

وفي عام ١٩٤٧ ازداد الضغط الصهيوني على سكان يافا فوجه الفرا ، بالاتفاق مع عدد من رجالاتها ، الدعوة الى اجتماع عام عقد في « النادي العربي الارثوذكسي » لبحث اوضاع الامن فـي يافا ، وحضر الاجتماع عديد من شخصيات المدينة ، واتفقوا على تأليف مجلس امن وانتخب « الفرا » امينا لسره ، واخذت « منظمة الشباب العربي » ومجلس امن يافا يطالبان الحكومات العربية وسماحة المفتي بالاسلحة لكن الحكومات العربية لم تستجب الا للقليل من العتاد .

الى الولايات المتحدة : وبعد ان تأكد « الفرا » من ان الحكومات العربية عاجزة عن تحرير فلسطين قصد الولايات المتحدة في مطلع عام ١٩٤٨ والتحق بجامعة Suffolk بولاية ماساشوستس لدراسة الحقوق وفي عام ١٩٥٠ نال درجة بكالوريوس وانتسب الـى جامعة بوسطن بالولاية ذاتها ونال عام ١٩٥١ درجة استاذ في الحقوق ، كما نال في نفس العام « جائزة ماكوبيسن » لكتابة احسن مقارنة عـن العدالة في العصر الروماني والعصر الحديث . وفي عام ١٩٥٢ التحق بجامعة بنسلفانيا لاعداد الدكتوراه فطلب اليه الدكتور فريد زين الدين ، رئيس الوفد السوري عهد ذاك ، الانضمام الى الوفد السوري للمساهمة في الدراسات اللازمة للقضية الفلسطينية .

وبناء على طلب من السيد الفرا وافق عميد كلية الحقوق فـي جامعة بنسلفانيا على ان تكون مدة دراسته سنتين بدلا من سنة واحدة وفي عام ١٩٥٧ قدم اطروحة بعنوان « صلاحيات المنظمة العالمية وسيادة الدول الاعضاء » وبعد مناقشتها منح « الفرا » درجة الدكتوراه في الفقه القانوني .

وخلال السنوات الطوال التي سلخها الدكتور الفرا في الولايات المتحدة شجع على انشاء « منظمة الطلبة العرب » وفي عـام ١٩٥٤ انتخب رئيسا للجنة التي وضعت اول دستور لهذه المنظمة ، كمـا انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية ونائبا للرئيس .

وفي عام ١٩٥٥ اسست الجامعة العربية فـي نيويورك مكتبا للدعاية العربية فانضم الدكتور الفرا اليه رئيسا لقسم الامم المتحدة وعمل فيه اربع سنوات قام خلالها بالدعاية العربية فـي الجامعات الاميركية وفي محطات الاذاعة والتلفزيون ، كما اعد دراسات مختلفة عن القضايا العربية في الامم المتحدة ، بما فيها قضايا المغرب العربي وقضية الجزائر بصورة خاصة .

في السلك السياسي : وفي عام ١٩٥٩ انضم الدكتور الفرا الى السلك السياسي الاردني وعين نائبا للمندوب الدائم فـي المنظمة العالمية بنيويورك ، ومثل الاردن في عدد من دورات الجمعية العامة وفي المجلس الاقتصادي حيث انتخب نائبـا للرئيس ورئيسا للجنة الشؤون الاجتماعية واللجنة الدستورية المنبثقة عن المؤتمر التحضيري للتجارة .

وفي عام ١٩٦٢ نقل الدكتور الفرا الى السفارة الاردنية بالقاهرة وزيرا مفوضا ومثل الاردن في مجلس الوحدة الاقتصادية وانتخب اول رئيس لهذا المجلس ، كما مثل الاردن فـي دورات مجلس الجامعة العربية .

الى الامم المتحدة : وفي صيف عام ١٩٦٥ نقل الدكتور الفـرا مندوبا دائما للاردن في الامم المتحدة ، وممثلا فـي مجلس الامن ، وتبنى الدفاع عن قضية كشمير في مجلس الامن وطالب بحق اهلها في تقرير مصيرهم . وتقديرا للجهد الذي بذله في مقامه هذا انعم عليه المشير أيوب خان رئيس جمهورية باكستان ، بوسام نجمة باكستان ، كما دافع عن قضية الاكثرية الافريقية في روديسيا ، وتبنـى مشروع القرار التمهيدي الذي طلب اقراره قبل سماع الشكوى ، ويعتبـر مشروع هذا القرار اول « سابقة » من نوعها في مجلس الامن ، ويتضمن

دعوة الدول الاعضاء الى عدم الاعتراف بنظام الاقلية البيضاء في روديسيا ومقاطعتها اقتصاديا . وباصرار من الدكتور الفرا اقر هذا القرار قبل الدخول في صلب الشكوى ، الامر الذي حال دون الاعتراف بنظام ايان سميث (حكم الاقلية البيضاء) . ولدى بحث الشكوى اوضح الدكتور الفرا وجه الشبه بين سياسة بريطانيا في فلسطين وسياستها في روديسيا .

— وفي اذار ١٩٦٦ ترأس الدكتور الفرا جلسات مجلس الامن ، وخلال رئاسته طرحت قضيتا قبرص ودخول غيانا البريطانية في عضوية الامم المتحدة . وفي المجلس الاقتصادي والاجتماعي المنبثق عن هيئة الامم كان الاردن العضو العربي الوحيد في هذا المجلس ، وقد اثار الاتحاد السوفياتي قضية الاكراد ضد العراق ، فعارض الدكتور الفرا بحثها لعدم ادراجها في جدول الاعمال . وفي اليوم التالي اتهم المندوب السوفياتي بلاغية حول هذا الموضوع ، فشجب الدكتور الفرا هذه القضية فهب المندوب السوفياتي الى مهاجمة الدكتور الفرا بقوله : « يحاول المندوب الاردني بمناقشته هذا التقرب من العراق ، والسوفيات يعلمون مدى الخلاف الناشب بين الاردن والعراق ! » فرد الدكتور الفرا بقوله : « ان السوفيات يجهلون ان العرب امة واحدة ، وان اية خلافات محلية تنجم بينها هي خلافات وسيلة لا خلافات هدف وان السوفيات هم الذين يحاولون استغلال مثل هذه الخلافات ! » .

اثار الدكتور الفرا من نفسه في مجلس الامن عددا من القضايا العربية ، فتبنى شكوى سورية ضد اسرائيل عام ١٩٦٦ ، وشجب شكوى اسرائيل ضد سورية ، كما فضح نوايا الولايات المتحدة الموالية لاسرائيل ، وكشف القناع عن المناورات والمؤامرات التي احاطت بالسموع .

وعندما تقدمت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا ، اثناء بحث شكوى السموع ، بمشروع قرار يدين سورية ذكرتا فيه « تذكير المجلس ان منظمتي « الفتح » و « العاصفة » قد ارتكبتا اعمالا تسللية في اسرائيل » التفت الدكتور الفرا الى غولد برغ رئيس الوفد الاميركي وخاطبه بقوله : « لقد كنت قاضيا في المحكمة العليا ، الا ترى ان اي قرار يبنى على الشك هو قرار فاسد ومردود ومطعون فيه فكيف توصي المجلس باتخاذ مثل هذا القرار ؟ » ، ثم اضاف الدكتور الفرا : « لقد ظهرت اليوم منظمة جديدة تعمل داخل اسرائيل هي منظمة « ابطال العودة » فلماذا لا تدخل هذه المنظمة الجديدة في القرار الذي تطلبه ؟ أي : لماذا لا تقول اما « الفتح » او « العاصفة » او « ابطال العودة » هي المنظمة التي ارتكبت اعمال التسلل موضوع الشكوى ؟ ثم ان هناك مليوني بطل من ابطال العودة ، وكل منهم فدائي ... و « الفتح » و « العاصفة » فلماذا لا يدخلون في هذه الفقرة ؟ » . وزاد الدكتور الفرا على ذلك قوله : « هناك سؤال اوجهه الى الحكومة الاميركية واريد جوابا عنه وهو : « هناك مليونا فلسطيني على طول خط الهدنة ، ولهؤلاء حقوق في اراضيهم المغتصبة ، وهم يرفضون التخلي عنها لاسرائيل الغاصبة ، فهل من رأي الولايات المتحدة ان تودعهم السجون حفاظا على سلامة المعتدي الاسرائيلي ؟ واذا لم يكن لدينا « سجن » يستوعب المليوني فلسطيني ، فهل ترى امريكا ان بناء هذا « السجن » ضرورة ماسة ؟ واذا كان هذا مستحيلا الا ترى امريكا ان المنطق يفرض علينا التعمق في تحري الاسباب الحقيقية التي ادت الى هذه المشكلة ، لا معالجة القضية الفلسطينية معالجة سطحية ؟ » .

كان الدكتور الفرا في جميع هذه الشكاوى ينبه الى عدوان توسعي اليم تعد له اسرائيل وتسعى الى تحقيق مرحلة جديدة من مراحل حلمها القديم « من الفرات الى النيل » . واخر تنبيه وجهه في مجلس الامن عندما نشرت « جروسالم بوست » في عددها الصادر بتاريخ ٨ — ٥ — ١٩٦٧ تصريحا لجاليلي الوزير الاسرائيلي جاء فيه « سيأتي اليوم الذي يعترف فيه قادة العالم بان القدس هي عاصمة اسرائيل » . وقبل الهجوم الاسرائيلي على سيناء وغزة والضفة الغربية وعلى قسم من سورية (٥ — ٦ — ١٩٦٧) نبه الدكتور الفرا اكثر من مرة الى ان اسرائيل ستعتدي وتقتل وتبطش رغبة في اجلاء العرب وخلق فراغ يسهل تحقيق التوسع الاسرائيلي ، ولهذا طالب الفرا ان لا يتوانى مجلس الامن عن وضع حد لهذه النوايا الخبيثة واتخاذ قرار بناء يعالج القضية معالجة جذرية لا معالجة سطحية تستغلها اسرائيل لتحقيق نواياها التوسعية .

وعندما اضطرت الاردن الى قرار وقف اطلاق النار في الحرب العربية الاسرائيلية وقف الدكتور الفرا معلنا في مجلس الامن « ان معركة المصير العربي لن تنتهي ... لانها معركة الوجود العربي ، معركة الحياة والحرية ! » واكد للمجلس انه مهما تعددت المؤامرات التي تحيكها الدول التي تحمي اسرائيل فالامر المؤكد ان الحرية ستنتصر ، وان روح الميثاق ستسود ، لانها روح الحق وروح العصر وهي اقوى من روح العدوان ! » .

وكشف الدكتور الفرا عن الدور الذي لعبته الدول الغربية وامريكا بصورة خاصة ، هذا الدور الذي كان من اسباب الهزيمة خصوصا وان امريكا زودت اسرائيل بالهبات والمساعدات ابتداء من القنابل والاسلحة ومدرعات « الباتون » الامريكية التي زعمت الولايات المتحدة انها زودت اسرائيل بها للدفاع عن النفس ، لكنها استعملت للهجوم والفتك والتدمير .. لتمكين اسرائيل من الحصول على الاراضي العربية وطرد المزيد من السكان العرب ! » واستطرد الفرا بقوله : « لقد مكنوا اسرائيل من انتصارات كبيرة لغيرهم واسرائيل لم يتمكنوا من لي الروح المعنوية القوية ولا الايمان العربي ، ولا الارادة الصلبة . لقد خسرنا مناطق وقرى كثيرة وخسرنا المعركة ، وفي وسع اسرائيل وشركائها في الجريمة ان ترتكب المزيد من الجرائم ، وان تخطط المزيد من المؤامرات ، وان تتقدم لتحقيق حلمها « من الفرات الى النيل » وان تحط طائراتها على قرى عمان وبغداد ودمشق والقاهرة لكن الشيء الذي تعجز عن اجتراحه هو قهر تصميمنا على الحياة ... على التمتع بالحرية والعمل لها ، ان هذه هي رغبة الامة ... رغبة الضحايا ... انها رغبة قوية في طرد الغزاة مهما كان الثمن حفاظا على الوطن العربي ! »

نموذج من نثره : والدكتور الفرا بالاضافة الى غزارة علمه وسعة اطلاعه في دنيا الحقوق فهو اديب عميق التفكير ، وله جولات موفقة في دنيا القصة القصيرة ، وحولك نموذجا منها :

« في مكتبي بالقاهرة (١) ... المجلس اتخذ مشروع قرار لمجلس الوحدة الاقتصادية يقضي بالغاء جوازات السفر وتسهيل التنقل في الوطن العربي الواحد !

تقف امام السفارة سيارة .. ينزل منها شيخ عجوز .. اراه يسأل بواب السفارة سؤالا لم يعرج نحو مكتبي ... يصعد سلم العمارة اللولبي في خفة غريبة ولم اقل الشيخوخة القاسي ... يدخل مكتبي ويلقي بنفسه على يدي مقبلا ، وفجأة اجد احدى يدي تغمرها لحيته الفضية الطويلة ... وتحس دموعه تتساقط على يدي واهب مذعورا متسائلا مذهولا ... والتفت الى هذا الرجل الوقور ... الدموع تنهمر من عينيه ، ونظر الي نظرة الرجل الكبير المحطم القلب ، الشارد الذهن الموزع الفكر ، السارح في عالم كله قسوة والم ... واخذت اهدىء من روعه !

يجلس الى جانبي ويشرع يقص علي قصة من ماساة ... وقضيت ساعة اسمع قصة سبعة عشر عاما ، بعثت في نفسي انفعالات شتى ...

(١) وقعت هذه القصة في القاهرة والدكتور محمد الفرا ممثلا الاردن في جامعة الدول العربية وقد حملته أريحيته على ان يسهم في وقائعها

عادت مرة ... ثائرة اخرى ... عادت الى ذاكرتي « القضية المفتوحة » ... المتداولة في سوق المساومات والاهات والتمنيات ... وراح يبثني لوعته وحزنه وغيرته على شرفه يقول : « قصتي يا عم ... تبدا ساعة ضاعت فلسطين في ١٥ ايار ١٩٤٨ ... عندما احتل اليهود المنطقة المجاورة لقريتي « الشيخ مونس » . لقد سمعنا بوحشيتهم واعتدائهم على النساء وقتلهم الاطفال ، فدب الذعر فينا واخذ عربنا في الرحيل ... وكان رحيل النسوة والاطفال واجبنا الاول !

وشاءت الظروف أن يجيء زوجتي المخاض في تلك اللحظة ، فتضع طفلة اسميناها « عاليه » وتموت الزوجة بعد الوضع بساعات .. فاغوص في دوامة من الاسى : هذه الزوجة لا بد من الاسراع في دفنها في مسكنك بارضها .. وهذه الطفلة في المهد ولا بد من مرضع لها في هذا الحال ... وهؤلاء الاطفال بانتظار الرحيل... وها انا اقف حائرا لا ادري كيف السبيل الى الفرج ؟ ماذا اصنع ؟ اين اتجه ؟

ادور في حلقة مفرغة ... واقف واقفا حيث انا ... ويأتيني جاري « حسين » ويقول : « يا ابا فلاح ... لا تجزع ولا تيأس ... انصرف الى دفن الزوجة واعطني الطفلة ... سترضعها زوجتي وتعتبرها طفلتها، فهي ام لطفل رضيع اخر ! » .

ثم يعيد : « لا تيأس ... ولا تحزن ... ان الله كريم ... الفضائل علينا كثيرة يا ابا فلاح وستحظى « عاليه » بكل رعاية وعناية ، وما يكتبه الله لنا نكتبه لها ... اذهب وتوكل على الله ! » .

قبلت « عالية » الملفوفة في نصف متر من القماش اسود وسلمتها الى جاري المصري الذي كان يحضر كل سنة طلبا للرزق ، ويقيم عندي وفي بياراتي بلا مقابل في موسم البرتقال .

وبعد ساعات ازداد الضغط اليهودي علينا واخذت قنابل القتل والبطش والتشريد تشق طريقها الينا ... فقلنا بالفرار ، وطرنا ايدي سبا !

ومضت الايام في معسكر اللاجئين بنابلس ، ولم تمض ثلاثة ايام على وفاة زوجتي ... ولم نعلم اين استقرت النوى بابنتي « عالية » !

وعشت حياة الخيام .. والذل والفاقة .. وقست الايام علي .. ورحت اترقب اخبار « عالية » اين هي ؟ كيف تعيش ؟ واستوقفني الليل واحصت النجوم المنثورة في كبد السماء من عيوني ... واسألها في ظلام الليل : « اين انت يا « عالية » ؟ كيف حالك ؟ واروح احدث نفسي في سكون الليل الوانا من الاحاديث ... ثم انتهي الى القول : « لا يجمعنا مكان الا « الشيخ مونس » ... هناك افترقنا ... وهناك نلتقي ! وتختلط احلامي ، فاذا ما اصبح الصباح ، يلتقي العائدين وعود من اذاعات الحكام العرب وتجار السياسة ... وما اكثرهم !

وطال المقام .. وتعثرت العودة .. وكبرت ابنتي في عالم اجهله .. وانا تائه لا ادري اين اتجه ... اعرف طبعا ان ابنتي مع الاسرة التي كانت تقيم في ديارنا من بادية سيناء ... ولهذا انصت الاخبار مع كل قاصد غزة وسيناء وسألت عن ابنتي كل قادم !

واخيرا ... وبعد خمسة عشر عاما جاءني لاجيء فلسطيني يقول ان ابنتي في مصر بعزبة « الس » القريبة من المنصورة ، وقد التقى ابناها بالتبني في احد حقول القطن ، وراحا تجمع القطن هناك مع بعض اللاجئين الذين جاءوا من اجل العيش ... تماما كما كان يعمل الحاج حسين في حقول البرتقال الجميلة ... في بلدي المغتصب الحبيب ...

وكادت المفاجأة وشدة الفرح ان تقضيا علي ... ووجدت نفسي اهب من مقعدي فرحا ... مقبلا هذا الرسول الطيب الكريم ... والقم ثيابي واستلف بعض النقود من والدي الرابض على خط الفداء ... واهم بالسفر الى ارض الكنانة .. وسرعان ما يسقط في يدي عندما اجد ان « الدار قفر ... والمزار بعيد » العلاقة بين بلدين في الوطن العربي الواحد لا تسمح بالسفر ... والاتصال يجب ان يؤجل ... الى لا بد من توكيل من يحضر الفتاة .. وظننت ان الامر سهل !

ارسلت الوكالة الى قريب لي يقيم في قطاع مقطوع من الوطن الحبيب ، وذهب الوكيل بعد ان سمح له باجتياز الحدود والسدود .. ولاذ بالبوليس ... فجيء بابنتي في حراسة من الشرطة ... وحز في نفسها ان يكون اول اتصال لابيها عن طريق سلطات الامن ... ورأت البنادق والسلاح ... وانتابها الخوف من جديد ... وتصورت ان اباها جبار قاس لا يعرف الحنان ... وحالما بلغت مركز البوليس اعلنت ان لا ابا لها الا من ابتاعها ولا تريد عنه بديلا ..! واعطيت حرية الاختيار.. فاعادها البوليس الى العزبة ... ونمى الخبر الي فازددت تعاسة ... ولممت احزاني وذكرياتي ومآسي لاعيش فيها من جديد !

عدت لاعيش في جو من الامل .. في مخاوف والام الماضي ... اتطلع الى عدالة السماء : فقدت زوجتي ... ابنتي تتنكر لي وآثرت الا تعود الي ... وهكذا انتزعت قسوة القدر ارضي وزوجتي وابنتي.. بل كل شيء في هذه الحياة ! ووجدت الا امل لي الا بمحاولة اخرى اقوم بها بمفردي لعل الله تعالى يكتب لي النجاح ، لكن هذه المحاولة تحتاج الى سفر ... والسفر مرهون بتطور العلاقات بين بلدين عربيين من وطن واحد !

ومرت الايام وازداد هول المصيبة بعد الذي وقع ... استيقظ صباحا لاسمع الانباء من الاذاعات العربية ... والما وجدت لاجئا يقرأ الصحف اليف معه واناشده الله العظيم ان يقرا لي ما يتعلق بعلاقات الدول العربية التي اعيش فيها كما تعيش فيها « عالية » وهكذا دواليك اواصل ليلي بنهاري ... ونهاري بليلي متنقلا من اذاعة الى اخرى ومن جريدة الى جريدة ..!

سنتان كاملتان واخيرا لاحت بوادر الفرج ... انعقد مؤتمر القمة العربي الاول والثاني « الاخيرة » وتحسن الجو ... وقصدت القاهرة لاكون معك الآن !

هذه قصتي ... وهذا عنوان ابنتي .. وها انا داخل عليك .. وعلى كل فرد من عائلة « الهرا » ... ساعدني ... انا لا استطيع البقاء هنا طويلا اذ لا احمل الا القليل من النقود ، ولا اريد ان اكون عالة على غيري من الناس .. ان الله اخذ مني كل شيء وابقى لي عزة النفس . انت لا تريد ان احرم هذا واكسر نفسي في هذه السن ... ارجوك !

حرت قصة الشيخ في نفسي ، حتى اذا تنفس الصبح كنت مع هذا الرجل الفاضل الذي سيأتي مسرعا الى المنصورة ، احمل في جيبي كتابا من وزارة الداخلية في القاهرة الى المسؤولين هناك لتسهيل مهمتي ... وبعد ساعات التقينا بالفتاة « عالية » ... ورآها ابوها فراح يبكي ... اما هي فاعرضت عنه وابت مصافحته وقالت انها لا تعرفه ... ولا تريده ... انه بعث اليها بالبوليس وبالبنادق والسلاح ... انها قضت ليلة كاملة مع العابثات بالقانون ... وازداد بكاء العجوز الشيخ ، وحز في نفسه انها لا تعلم من امر القصة شيئا .

قالت : اذا كان هو ابي فلم لم يتعرف علي من قبل ؟ كانا سكت سبعة عشر عاما لم تذكرني ... الان كبرت ؟ اهو دافع الانانية ؟ اهو الطمع في مهر وكسب ؟ لا ... لا ... اللي لا اريده !

وقليلا قليلا اخذ ضابط بوليس المنصورة ، الرجل الطيب الخبير بنفسية اهل العزبة يوضح لها ما جرى ... ويشرح لها ما كابده والدها ... الايام الطويلة القاسية من الارق والسهر والعذاب ... والحقد يستشهد بي ... فاخذت احدثها عن النكبة وظروفها وعن نصيبها منها ... قلت لها انها لن تؤخذ بالقوة او العاطفة ، كما كانت تظن ، وسنقف الى جانبها ضد اي عنف ... ولن يتدخل البوليس الا لمصلحتها ، ولن ناخذها الا بعد رضاء تام ورغبة اكيدة ، وبعد ضمان مني وتعهد مكتوب !

ها هو الحاج حسين قادم ... انه لم يعد يقوى على المشي الا بعكاز طويل يتكيء عليه .. يرتدي جلبابا ابيض طويلا .. ويعتمر طاقية من الوبر ملفوفة بشال من القطن الشفاف الناعم ... انه ذو شاربين طويلين ولحية قصيرة ... لقد اتعبته الايام وهدته الحاجة ومتطلبات الحياة

... فتعمر نظره واسيح لا يرى الا قليلا ، همس في اذني قائلا ، « انني ابو « عاليه » يا ابني واستطرد قائلا :

« عاليه كل شيء لنا ... هي أملية لي انا الشيخ العجوز ... والميلة لزوجتي التي ارضعتها وربتها ... وهي العبيرة لعيشتنا ، الساهرة على راحتنا ... ولك ان تتصور ما يتركه في نفوسنا رحيلها عنا بعد ان كبرت وترعرعت بيننا واعتمدنا على الله وعليها ... ومع ذلك هي يا ابني امانة (لابي فلاح) ... هي دمه ولحمه وشرفه ... هي امانة له في عنقي حافظت عليها ... ولم افرط بها ... لقد كنت انا الشيخ العجوز اقصد اسافر الى القاهرة كل عام لتجديد اقامة فتاتية كاجنبية ... فلسطينية ... احمل القروش قليلة العام لتغطية نفقات السفر ولدفع الرسوم ... اتكبد كل هذه المشقة وانا الرجل الذي ترى ... لا اشتهي سوى المحافظة على اسمها الصحيح الذي كنت اتوقع مثل هذا اليوم .. ان (ابا فلاح) رجل طيب الرضى واحسن لي ، وهل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ انني سعيد وفرح بلقائه ، ومع ذلك فانا شارد الذهن ، تعيس ، اشعر ان الدنيا برحابتها تضيق فسي وجهي بسبب قرب سفر « عاليه » ... غير ان لي رجاء يا ولدي هو الا تاخذوا البنت الا برضاها ... ليبق الوالد معنا اسبوعين او ثلاثة ، فتراه ابنته كل يوم .. وتتعود وجهه .. ويقدم لها ثوب العيد .. وعطايا الابوة ... ثم يغادر ويعود ، وتتصل انت بـ « عاليه » ... فتتعود وجوهكم وترق قلبها ... وانا كفيل بالنجاح ... ! واتفقنا على هذا الترتيب ... وعاش « ابو فلاح » عدة ايام مع ابنته ثم عاد الى مخيمه وبقيت البنت ثم اخذت تصطحب ابن عم الفتاة الى القرية والمنصورة بين الحين والآخر . الى ان اقتنعت « عاليه » بحقيقة الحال ، فلم تعد تسال هل ستلاقيه الى اسرائيل ... لم تعد تقول انا ستلقي بها في احضان العدوان الصهيوني ، بل اخذت تسال عن ابيها وتحن اليه ، ثم طلبت ان يعود ليصطحبها الى مخيم اللاجئين !

وجاء « ابو فلاح » ووقفت علـى مائدة التعهد والضمان ووصل التسلم الحاج حسين وبسذاجة احتفظ بهذه الورقة كشهادة تنطق ببراءة ذمته ، وهي في الواقع تشير الى ما يتميز به الرجل من شرف ونخوة ومروءة واعتراف بالجميل ... ووعدت الحاج حسين بان تزوره « عاليه » في العيد من كل سنة !

وهب سكان القرية كلهم يبكون تارة ويغنون ويبكون تارة ... اصوات صافية مجلوة تنادي : « مع السلامة يا عاليه ... اذكرينا يا عاليه ! » وخرج الرجال ومعهم القرية وشيخ الخفر يرسلون التحيات الممزوجة بحزن الوداع ... والكل ينادي مودعا : يا حبيبتنا يا عاليه .. القرية كلها ... القلوب كلها ... تحتفل بعيد « عاليه » .. مع السلامة يا « عاليه » ! لم لا ذلك تحبيب قريب ... انها اصوات انسانية تصدر من قوم كلهم طيبون ، وتمثل ارق العواطف الانسانية واصدقها !

ترى أي انه ليس يكاد على حظ البنت العاثر فحسب بل هي ماساة الرجل الذي الى العذاب والهوان ... ماساة كبرى تبعث الحسرة والالم ... ماساة مليون لاجيء ... اصحاب الشمائل والذكريات الأولة ... كلها تتطلع الى يوم العيد .. عيد العودة بعد ضروب من الذل والجور والهوان ...

ثم ماذا !

لم تنته القصة عند هذا الحد ... فقد مضت السنة الاولى وتنقلت الى نيويورك لاجد امامي في شهر العيد رسالة من « العم حسين » الاب المقعد التيتني يطالبني بالعهد لان العهد كان مسؤولا ... لم تحضر ابنته « عاليه » من مخيمها الى المنصورة والى قرية الس بالثلاث كما توقع .. لم تحضر يوم العيد وما زال ينتظر العودة .. ويستنجزني الوفاء بالعهد ... ان العهد كان مسؤولا !

(1) من مقدمة كتاب « البستاني والياذة هوميروس » لكاتب هذا الفصل وقد نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٦٢ .

٢ ـ عبد الرحمن بشناق

يؤمن « عبد الرحمن » بالادب انه رسالة عقل الى عقول ، ووحي خاطر الى خواطر ونداء قلب الى قلوب ، وان الادب في لبابه قيمة انسانية ، وليس قيمة لفظية .

ولد « عبد الرحمن » في قيسارية بفلسطين عام ١٩١٢ وتلقى دراسته الابتدائية في طولكرم والثانوية فـي الكلية العربية ببيت المقدس . وفي عام ١٩٣٠ التحق بالجامعة الامريكية في بيروت وبعد ان نال شهادة بكالوريوس آداب منها قصد جامعة كمبردج في بريطانيا وتخرج منها عام ١٩٣٧ بدرجة استاذ علوم ، وعاد الى فلسطين وعين استاذا للادب الانكليزي في الكلية العربية بالقدس فوكيلا لمديرها المربي المرحوم احمد سامح الخالدي .

ولما انتابت فلسطين النكبة الاولى (١٩٤٨) عمل فـي الاذاعة البريطانية بلندن مدة ست سنوات (١٩٤٨ ـ ١٩٥٤) وفي عام ١٩٥٤ التحق باسرة البنك العربي في عمان واسند اليه منصب مراقب الكفالات .

وفي عام ١٩٦٢ انتخب عضوا في اللجنة الفنية لشؤون التربيـة والتعليم في الاردن ، وقد طافت هذه اللجنة بالاقطار العربية وبالدانمرك والمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة للوقوف على برامج التعليم الحديثة ولدراسة فكرة تأسيس جامعة في الاردن ، وفعلا تحققت هذه الامنية الغالية في صيف عام ١٩٦٢ .

وعمل « عبد الرحمن » عضوا في لجنة المناهج التي انشأتها وزارة التربية والتعليم مستقلة عن جهازها عام ١٩٦٢ كما عمل في لجنة مكتبة امانة العاصمة وفي مجلس ادارة مؤسسة الاسكان ، وهو في جميع الوان نشاطه مثال المواطن الدؤوب المخلص في غير تهاون او انتقاد . وهو الى ذلك كله نفيس المعشر واسع الاطلاع عميق الثقافة ، يملك ناصية اللغتين العربية والانكليزية ، ويتمتع بتقدير الاصدقاء والعشراء من المواطنين والنزلاء على السواء .

والذين عرفوا « عبد الرحمن » على مقاعد الدراسة يقرون انه من المفرطين في رعاية النظام واداء الواجب ويقولون ان ما يزعجه : (الرجل) الضعيف امام آرائه ، و (الرجل) الذي لا يفكر الا بالحلاق الذي يغيره و (ناموس) السيارة في الصباح والمساء !

ويقول اصدقاؤه ان ما يعجبه : (الرجل) المتواضع ، و (الطاقة) في سبيل المعرفة ، و (التصميم) بالواجب و (الاخلاص) في العمل !

ومن مآخذ « عبد الرحمن » على البشرية انها تشقى وفي وسعها ان لا تشقى ... ويقول : « أليس عيبا ان تقصر عن الكمال ، وفي الوسع ان يكمل الكمال ؟! » .

من آثاره الادبية : حالت النكبة الفلسطينية المروعة دون مضي « عبد الرحمن » في الترجمة والتأليف ، وله من الآثار المطبوعة :

(١) سبيل المجد او الكهنوت الذهبي

(٢) المنتخب من الشعر الانكليزي

نموذج من نثره : « ... وظهرت (1) « الياذة هوميروس » فـي ترجمتها العربية قبل اكثر من خمسين سنة ، وقد شهد الادب العربي المعاصر نهضة مباركة في الترجمة من ذخائر الامم الاخرى لكن ذخيرة البستاني ستظل في الطليعة الاولى بين آثار الامم المنقولة الى العربية . و « البدوي الملثم » الفضل في بعث الاهتمام بالبستاني من جديد فـي هذا الكتاب الجميل الذي بين يديك . وحبذا لو نظرت وزارات التربية والتعليم في الاقطار العربية في الكتاب واقرته لمدارسها لتطلع الاجيال الناشئة على عبقرية هوميروس وجهود البستاني ونبوغه ، في قالب انيق مستساغ ، وتتم الفائدة لو وجد في مكتبة كـل مدرسة كتاب البستاني كاملا ليرجع اليه الناشئون مـن الاصالة والتلاميذ .

والاستاذ الاديب « يعقوب العودات » عرفتـه قراء العربيـة بـ « البدوي الملثم » ونود ان نميط اللثام عن وجهه برهة في هـذه

ظنون

ويقول لي والسهد يرسم هالة حول العيون
من ذا الذي حدثته بالامس والنجوى شجون
وسكبت في التيه لحنك مشجيا هل تذكرين
ماذا ترى اخفيته عني ستنهيني الظنون
اجننك غيري في فؤادك مارجيني من يكبون
اني وهبتك مهجتي ومنحتك القلب الحنون
ووهبتك الاحلام والامال لم الذ بالضنين
واظلت في محرابك النجوى بهمس الحالمين
ما هان حبك لحظة ولديك آمالي تهون
انا يا منى الاحلام شرقي ، وفي قلبي فتون
اني اغار عليك من قلبي ويعصف بي الجنون
اني على رغم الوقار الوبي اما تخطرين
ويراك غيري لم يبدو لمثني صحات العاشقين
هل تعلمين حرارة الشرقي ليتك تعلمين
الوهم يشقيه وتقتله الشكوك ترحمين
اني الاقي الشاس يلتقي سهمات الوالهين
اني (الشاني) اغار عليك فلتهسي الحنين
فاجبته لا ليس غيرك في الخيال وفي اليقين
ستظل لي مر الهوى يا ملهمي طول السنين
ان كنت لا تدري فسري كامن في الجفون
فسل العيون تجيبك صادقة باني لا اخون
لا ليس غيرك في فؤادي رغم اني لا ابين
لبك ما مضى لك حاضري انك يا حبيبي ما يكون

مصر الجديدة — روحية القليني

الناسبة العلمية التي جمعتنا به « هوميروس » و « البستاني » ، التي يراه القارىء بوجهه الصبوح الباسم ، وتقسه العلمية الرائعة ، وطعمه والواسعه ، وسعيه المتصل لخدمة المعرفة وخدمة القارىء العربي . ولقي لاارى شبها عظيما بين « الموداث » و « الابستاني » في غزارة معرفتهما وعطشهما الدائم للمزيد منها ، وفي إسفارهما البعيدة وتشاطهما المتنوع ، وفي توقهما الفطري السليم الذي يرشدهما الى تناقض الحياة. ومن يلق « البدوي الملثم » يوما فسوف يلقاه أبدا ساعيا لخير صديقه والله لنعم الصديق الوفي ، او ذاهبا الى مطبعة او خارجا من مكتبة ، فهو النشط من يقرا ومن يكتب . يتبع الكتب والمقالات بخط يده ويصقلها لم يجد خطها وصقلها ، فتتغالب الساعات وتكل الايدي وتزوغ الابصار، وهو جالس في مكتبته غير مبال الا بما بين يديه من كتاب . ولقد القى المكتبة العربية حتى الان ببحوث طريفة ، طبعها بطابع التدقيق والتمحيص، منها « اسلام نابوليون » و « القافلة المنسية » و « الناطقون بالضاد في امريكا الشمالية » و « الناطقون بالضاد في امريكا الجنوبية » و « الشاعر الطيارة : فوزي المعلوف » .

وتذكرني كتب « البدوي الملثم » في بعض نواحيها بكتب « الجاحظ » ومن سار سيره من الاقدمين ، فهو يأخذ بيد القارىء فيطوف به بين الصور المختلفة والموضوعات المتباعدة والاقوال المتباينة ، في رقة ويسر، فلا يجد الملل الى نفس القارىء سبيلا . وكتابه الذي بين ايدينا الان بحث علمي موضوعي ، لكنه في الوقت ذاته حديث فني ، يوشحه بالملح فلا يدع فرصة سانحة الا ساق النكتة اللائمة او النص الحكاية المناسبة. وراودتني نفسي بسرد نماذج من طرائفه ، ولكني اخاف الوقوف بينك وبين الكتاب فاليك به ، فان امامك سويعات جميلة في رفقة « هوميروس » و « البستاني » و « البدوي الملثم » .

عمان ــ الاردن — البدوي الملثم

مصطفى عبد الواحد

فكرة الشعر الجاهلي عن العاطفة

بقلم مصطفى عبد الواحد
ماجستير في الادب والنقد

• • •

ليس هناك تحديد قاطع لاولية الشعر الجاهلي ولا ادلة واضحة تحدد وتطور اغراضه . ولكننا من خلال ما تناقله الرواة المحصون وما اطمأنوا الى نسبته الى شعراء الجاهلية نستطيع ان نتبين صورة مجملة تنبىء عن موقف الشعر الجاهلي من العاطفة بين الرجل والمراة .

وتلك العاطفة قديمة موغلة في القدم ، ولكن تناولها من جانبها الفني لا بد ان يتاخر عن الاحساس بها ، شان كل عواطف الانسان ومشاعره .

والحق ان التعبير عن هذه العاطفة من جانبها الفني يرتبط كل الارتباط باوضاع المجتمع وما يرتضيه من قيم ، اي ان نظرة الادب اليها تسمو بسمو قيمها في المجتمع وتهبط بهبوطها . .

وقد كانت المراة في المجتمع الجاهلي ذات اثر بارز ، لكن نظرة الرجل اليها في اتجاه المجتمع الغالب لم تتعد الجانب الحسي ولم ترتفع الى آفاق الوجدان السامية .

ذلك ان المجتمع الجاهلي لم تكن تتجاذبه الوان الثقافات ولم يكن للمثل الفكرية فيه نصيب ، بل كان مجتمعا فطريا لا يحفل بغير دوافع الفطرة ولا يستجيب لغير بوازع الغريزة .

وليس ذلك ازدراء به ولا تجنيا عليه ؛ لكنها سنة الاجتماع وقانون الحضارة ان الانسان لا يخرج من البساطة الى التركيب ولا من السذاجة الى التجربة والمعاناة الا وفق عوامل خاصة ؛ من شيوع الثقافة وصراع الافكار واحتكاك الآراء والنحل . ولم يكن للعرب في جاهليتهم حظ من ذلك ، فقد كانوا امة امية لا حظ لها من الثقافة ولا معرفة لهم بالعلم والفكر ، بل كانوا يعيشون على الموروث من التجربة والمالوف من العادات والتقاليد ، ومن هنا كان وضعهم للمراة ذلك الوضع الفطري الساذج وصراحتهم في التعبير عن مشاعرهم الحسية نحوها .

هذه هي المعلقات السبع التي عني الرواة بجمعها واتيح لها حظ وافر من الشهرة والذيوع ، تتبدى فيها الصورة الحسية لنظرة الشعر الجاهلي للصلة بين الرجل والمراة ، وان كان فيها بعض الاحاسيس العاطفية التي سنعرض لدلالتها فيما بعد .

اول تلك المعلقات تنسب الى امريء القيس بن حجر الكندي (١) . وهو من اهل نجد (٢) . ويذكر ابن قتيبة انه « يعد من عشاق العرب والزناة ! وكان يشبب بنساء منهن فاطمة بنت العبيد بن ثعلبة بن عامر العذري ، وهي التي يقول فيها :

كدابك من ام الحويرث قبلها وجارتها ام الرباب بماسل (٣)

ومنهن عنيزة وهي صاحبة يوم « دارة جلجل » . .

فاي مكان يضع فيه امرؤ القيس هؤلاء النسوة اللاتي يشبب بهن وتفيض اشعاره بوصفهن ؟ . . انه لم يرتبط باحداهن ارتباط اخلاص ووفاء ، ولم يكن يرى فيهن الا وسائل لمتعته ومجالات للهوه وفتونه ، لا يعنيه في شيء ان يحتكم في علاقته بهن الى عاطفة او دين او خلق . . . ويدلنا على ذلك الخبر المشهور الذي يقال انه كان مناسبة معلقة امريء القيس اللامية (٤) . ولذلك لم يستطع امرؤ القيس ان يرتفع عن هذا الاسفاف في شعره ، فصور فيه نزواته والحاقه في الفحش والتبذل ، مما عابه عليه النقاد الاقدمون . يقول ابن قتيبة : « ويعاب عليه تصريحه بالزناء والدبيب الى حرم الناس ، والشعراء تتوقى ذلك في الشعر وان فعلته » .

والحقيقة ان امرا القيس يدين نفسه بالفجور في معلقته ويصور نظرته اللاهية الى المراة وازراءه بكل قيمة في سبيل بلوغ اربه من متعته الآثمة حتى ليحلف بالله فاجرا ، ولا يرعى حرمة قومه وجيرته . ولا يعنيه بعد ذلك ان ينثر في معلقته بعض الابيات التي يذكر فيها لفظ « الحب » دون ادراك لحقيقته او ارتقاء الى افقه . فهو حين يقول :

اغرك مني ان حبك قاتلي وانك مهما تامري القلب يفعل

لايعني حقا اذعانه لسلطان او خضوعه في سبيل ارضائها . فان السياق الذي يرد فيه هذا البيت لا يوحي بشيء من ذلك : فقد سبقه الحديث عن يوم «دارة جلجل» وما اقترفه فيه : واسفافه في الاعتراف بنزواته :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم محول

كما تلاه ايضا الحديث عن جرأته وفحشه :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت احراسا اليها ومعشرا ... علي حراصا لو يسرون مقتلي

وهذا ما يقطع بان الغزل الذي افتتح به امرؤ القيس معلقته ليس الا صورة باردة ادركها بعقله ولم تصل الى وجدانه او تختلط بنفسه ، فهو ليس بالوفاء الذي يصف به نفسه ولا بدقة الشعور الذي يصوره بقوله :

كأني غداة البين يوم تحملوا ... لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفا بها صحبي علي مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقد كانت النزعة الغالبة في الشعر الجاهلي في مجال الغزل ان تكون الاوصاف الحسية للمرأة هي المجال الذي تتردد فيه افكار الشعراء والوطن الذي يحومون حوله ؛ فيتنافسون في اجادة الوصف وابتكار الصورة ويتفننون في ذلك ويخترعون .

فهذا زهير بن ابي سلمى يشبه امرأة بثلاثة اوصاف في بيت واحد فقال :

تنازعت المها شبها ودر البحور ... وشاكهت فيهما الظبية

ثم قال مفسرا :

فاما ما فويق العقد منها ... فمن ادماء مرتعها الخلاء
واما المقلتان فمن مهاة ... وللدر الملاحة والصفاء

وهذا عنترة بن شداد العبسي لا يرى في المرأة التي اعجب بها الا شاة قنص ممكنة المرمى :

يا شاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت علي وليتها لم تحرم
فبعثت جاريتي فقلت لها اذهبي ... فتجسسي اخبارها واعلمي
قالت رأيت من الاعادي غرة ... والشاة ممكنة لمن هو مرتمي
وكأنما التفتت بجيد جداية ... رشإ من الغزلان حر ارثم

ولكن هذا لا يعني ان الاحساس بالعاطفة الصادقة لم يعرف طريقه الى قلوب شعراء الجاهلية ، ولكن المراد ان قيم العصر الذي عاشوا فيه ومثله كانت تحدد وعيهم وتؤثر في تصويرهم وتعبيرهم .

فاذا تجاوزنا الصور الحسية المسفة في شعرهم وجدنا ان امثل نظرة الى العاطفة عرفها ذلك الشعر تتمثل في اشعار يملؤها الاسى على ما فات ؛ حين يتذكر الشاعر لحظات السعادة التي مرت فيهتف باكيا كانما يأسى على نفسه ويندب حظها ! على نحو ما يقول عبيد بن الابرص :

لمن رسوم من سليمى دكادكا ... خلاء تعفيها الرياح سواهكا
تبدلن بعدي من سليمى وأهلها ... نعاما ترعاها وأدما تراتكا
وقفت بها أبكي بكاء حمامة ... أراكية تدعو حماما أواركا
اذا ذكرت يوما من الدهر شجوها ... على فرع ساق أذرت الدمع سافكا
سراة الضحى حتى اذا ما عنايتي ... تجلت كسوت الرحل وجناء تامكا
كأن قتودي فوق جأب مطرد ... رأى عانة تهوي فولى مواشكا

فهو يقف على الرسوم يبكي شجوه ويذرف الدمع : حتى يشفي نفسه من الشجن وتفارقه غماية الحزن . فيعدل الى ناقته السريعة المدربة على الاسفار يكسوها الرحل فتولي به مسرعة .. فليس في هذا الشعر عاطفة ثابتة . ولكن فيه اشجانا طارئة تثيرها الرسوم وتنشئها الذكريات .

وقد كان يدفع العربي الى ذلك الشعور انه ليس لحياته طابع الاستقرار ، فالديار تعمر ثم تقفر ، والاحباب يظعنون يخلفون له اللوعة والحسرة ، فكان بكاؤه في الحب بكاء على نفسه واسى على ذهاب انسه وفقد متعته .

فلم تكن المرأة في نظر الشاعر الجاهلي غير وسيلة لاكتمال البهجة واحتياز المتاع : فهي تضاف الى لذة المطعم ووفرة المتاع ، على نحو ما يرسم لنا سلمى بن ابي ربيعة في ابياته :

ان شواء ونشوة ... وخبب البازل الامون
يجشمها المرء في الهوى ... مسافة الغائط البطين
والبيض يرفلن كالدمى ... في الريط والمذهب المصون
والكثر والخفض آمنا ... وشرع المزهر الحنون
من لذة العيش والفتى ... للدهر والدهر ذو فنون (٥)

فهنا تتضح المقاييس الجاهلية لخفض العيش ودعة الحياة يتقدم فيها الشواء والخمر والظهر السريع ، ثم تأتي المرأة في حليها وزينتها مع وفرة المال وانغام المزهر .

لا غرو اذا كان الجاهلي يبكي على فقد المرأة في اسى لكنه لا يستطيع التعبير عن العلاقة بينه وبينها في صورة مثالية ترتفع عن الحس وتتصل بالعاطفة في ثباتها ووفائها ، اذ لم يكن لديه من المشاعر والمثل النفسية ما يسمو به عن الحس ويلهمه الصور ويمده بالتجارب .

وعلى هذه النظرة تسير المعلقات السبع في البكاء على الاطلال واسترجاع الذكريات البهيجة مع الاحباب اياما انقضت او يسترجع ساعات من طيب العيش ولذته .

وعلى هذه النظرة تسير المعلقات السبع في البكاء على الاطلال واسترجاع الذكريات البهيجة مع الاحباب الظاعنين .

يقول الحارث بن حلزة اليشكري :

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شماء ... فأدنى ديارها الخلصاء
لا أرى من عهدت فيها فأبكي ... اليوم دلها وما يحير البكاء

ولكنه لا يلبث ان يتسلى عن ذلك بناقته السريعة التي تطوي به الابعاد :

غير اني قد استعين على الهم ... اذا خف بالثوي النجاء

ويقول زهير بن ابي سلمى :

فلما عرفت الدار قلت لربعها ... الا انعم صباحا ايها الربع واسلم
تبصر خليلي هل ترى من ظعائن ... تحملن بالعلياء من فوق جرثم

وبعد ان يصف هؤلاء الظعائن يبين تعدده من السؤال عنهن والاشتياق اليهن والبكاء عند آثارهن فيقول :

وفيهن ملهى للطيف ومنظر ... انيق لعين الناظر المتوسم

وبذلك تتضح لنا دلالة الوقوف على الاطلال على

نوع العاطفة التي كانت تملأ قلب الشاعر الجاهلي وتدفعه الى البكاء .

فهل يمكن القول ــ مع ذلك ــ ان العشق بمعناه الحق ــ من استيلاء العاطفة على القلب والوفاء لها والارتفاع عن اللهو والمجون في النظرة الى المرأة لم يعرف طريقه الى اهل الجاهلية ؟ اننا لا نملك اصدار الاحكام القاطعة في هذا المجال ، ولكننا نملك الملاحظة والاعتبار بالشواهد التي بلغتنا عن الجاهليين واشعارهم . وكل ما يمكن الاطمئنان اليه في هذا الشأن أن البيئة العربية قبل الإسلام بظروفها ومثلها وأهدافها كانت ذات أثر قوي في توجيه العرب نحو النظرة النوعية للمرأة ، فلم يكن لديهم من خفض العيش او من الفراغ من الهموم والشواغل او الاطمئنان والاستقرار ما يوجههم الى علاقة تعدو مطالب الغريزة ، ولم يكن لديهم من الثقافة والمثل الفكرية والنفسية ما ينشىء لديهم نظرة ذات قيم عالية ومشاعر سامية . فكانوا الى السذاجة والفطرة اقرب من التعقيد والتثقيف .

غير اننا لا نعدم في اخبار الجاهليين صورا نادرة لاستحواذ العاطفة على القلب وغلبتها على الشاعر حتى تصل بصاحبها الى الموت .

فهذا عبد الله بن عجلان النهدي يصفه ابن قتيبة بانه «من عشاق العرب المشهورين الذين ماتوا عشقا (٦) » ونضيف الى كلمة « المشهورين » القليلين ، فان الموت في الحب لم يكن امرا حسنا في النظرة الجاهلية بل كان دليلا قويا على وهن العقدة وضيق الروية ، فبامكان العاشق الجاهلي ان يتسلى باخرى او بناقة سريعة او كاس من الصهباء ! ويدلنا على شهرة ابن عجلان هذا ولرواية المصير الذي انتهى اليه ما ذكره ابن قتيبة بعد ذلك في قوله : وقد ذكره بعض الشعراء فقال :

ان مت من الحب   فقد مات ابن عجلان

واما خبر موته ، فهو على ما يذكر ابن قتيبة : انه بعد ان بلغه زواج هند التي كان يهواها من ابي سفيان بن حرب فقال :

الا ان هندا اصبحت منك محرما   واصبحت من ادنى حموتها حمى
فاصبحت كالمقمور جفن سلاحه   يقلب بالكفين قوسا واسهما

قال : ومد بها صوته ، ثم خر فمات .

والامر هنا ــ كما نرى ــ لا يخلص للعاطفة ، ولا الشعر الذي ذكره يفضي بالحسرة او ينضح باللوعة ، ولكننا نتبين فيه عواطف اخرى غير الحب ، ويدل على ذلك تعقيب ابن قتيبة على هذا الخبر بقوله : « وهذا الشعر يدل على ان هندا كانت تحته ، فطلقها ثم تبعتها نفسه (٧) » .

وهذا الخبر ينسب ايضا لمسافر بن ابي عمرو بن ابي امية ، على ما رجحه صاحب الأغاني (٨) فيذكر انه لما خرج الى النعمان بن المنذر يستعينه في مهر هند بنت عتبة بن ربيعة فقدم ابو سفيان بن حرب فسأله عن اخبار مكة ، وهل حدث بعده شيء ؟ فقال : لا ، الا اني تزوجت هندا بنت عتبة . فمات مسافر اسفا عليها . ويدل على صحة ذلك قوله : « واصبحت من ادنى حموتها حمى » ، لانه ابن عم أبي سفيان بن حرب .

وايا ما كان الامر ، فان ذلك لا يعتبر عشقا ادى الى الموت بقدر ما يعتبر حسرة بالغة على فوات الحظ وكمدا على غلبة القرن وفوزهدونه بمن يهوى .

ومن هذا القبيل ايضا ما رواه صاحب الاغاني عن المرقش الاكبر من موته عشقا بعد ان زوجت ابنة عمه التي كان يهواها من غيره ورحيله الى ديار زوجها ، وهي قصة يغلب عليها التصنع ويوضع فيها الشعر في غير موضعه ، ولا تبدو عليه اصالة الرواية وصدق الاحداث .

ونحن في هذه الملاحظة لموقف الشعر الجاهلي من عاطفة الحب لا نتحامل على الجاهليين ولا نجردهم من العاطفة والاحساس الكريم ، ولكننا نرعى الخصائص الفكرية واحكام البيئة والتاريخ ، ونسير وراء دلالة الروايات وأبعاد الاشعار .

ولذلك كان من احكام البيئة فيما بعد حين تغير المفهوم الثقافي والاجتماعي ما كان ، تكان لذلك اثره في خلق العاطفة الكريمة وفي الارتقاء بالوجدان العربي وامداده بصور رقيقة نبيلة سمت بالخيال العربي الى آفاق لا تسامى ، وكانت تعبيرا صادقا عن المثل الانسانية والقيم الخالدة التي خلقت المجتمع العربي بعد الاسلام .

القاهرة   مصطفى عبد الواحد

جذوة

لا تخمد الجذوة ، يا خافقي
فسدم لها أشواقك الباقية
لا تترك الايام تمضي سدى
ما دام مسراها الى الهاوية
لا تخمد الجذوة ، يا خافقي
طيب الاماني لم تزل .. باقيه !

حلب   علي الناصر

---

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ ــ ٥٢ ، (٦) المصدر السابق (٣) من ابيات العلقة ، ومنسل : خسم عل . (٤) الخبر في الشعر والشعراء ١ ــ ٧١ . (٥) الحماسة لأبي تمام ٢ ــ السة . (٦) الشعر والشعراء ٢ ــ ٦٦٥ . (٧) الشعر والشعراء ٢ ــ ٦٦٦ . (٨) الاغاني ٨ ــ ٤٦ ــ ٤٧ .

قصة

أجنحة الدخان

بقلم جهاد الكاتب

عندما بدأت اهبط مع الاصدقاء الاربعة درج الملهى الملتوي فرصت نفي شدونة ممتزجة برائحة الارض المخضرلة . في نهاية الدرج وقف باب ينفتح على ممر طويل ينتهي الى صالة ذات سقف واطيء صبغت باللون الاحمر . شعرت انني اخون، لقد عاهدت امل ان اكون معها الى الابد ؛ وان احبس كل حبي لها وحدها ، وان امنع عيني عن كل امرأة دون وجهها الرائع ، وان اطمس كل الدناءة في نفسي .. فاكتأبت .

في الصدر ، وعلى شكل نصف دائرة ، مصطبة كبيرة ، تعلو عن الارض نصف متر . جلسنا قربها بعد ان قادنا رئيس الخدم الى طاولة مستطيلة ، وصفق ؛ فحضر بعد دقيقة خادم قصير ، اسود الشعر ، عيناه غائرتان .. مطموستان ، انفه مقعر ، وفمه عريض يمتطيه شاربان رفيعان ، قال صديقي الذي جلس الى يميني :

ــ ماذا تشرب ؟

كنت لا ازال افحص الصالة ماذا اشرب .. همست في اذنه :

ــ قهوة .. او عصير ليمون .

ضحك باقتضاب ، لم صك اسنانه ، ومال راسه الى راسي :

ــ لا تفضحنا اطلب مشروب الرجال .

هممت ان اقول شيئا ، ارتبكت، ففككت ربطة عنقي .

لا ادري كيف قادني الاصدقاء الى هذا المكان ، كانوا يعرفون كرهي هذه الاقبية ، ويتندرون بذلك ... يسألونني ماذا تعرف عن النساء ، واظل صامتا ، استمع واريد ان اتكلم .. ان اقول شيئا عن النساء . كانوا يحاولون دوما جري الى الملهى او الى اي مكان يحتسون فيه خمرا. وكنت ارفض واعارض ، واجد نفسي شجاعا ، بل بطلا في معارضتي ، كنت افضل ان اسحب الدثار فوق راسي واحلم ، احلم كيف سألقاها ، ماذا سألقى ؛ اي صديقة سألقاها واستعيد كل ذكرياتي معها ، اعيد في خاطري كل كلماتها ؛ واحاول احيانا ان اوجه اليها رسائل ، اضمنها كل خواطري ومشاعري .

لا ادري كيف استطاع الاصدقاء اقناعي بان الملهى يعرض مسرحيات قصيرة مضحكة ، ولوحات فنية لا علاقة لها بالعري ؛ وان ساحرا هنديا لم يروا مثيلا له في حياتهم يعرض الاعيب مشوقة ...

وجدت نفسي فجأة في مازق : انني لا اشرب خمرا ، لم اذوقه طوال عمري الذي يداعب الخامسة والعشرين ، ولكنني سمعت عن طعمه ، وعرفت لونه ، وشممت رائحته فكرهته . واحتج امام الاصدقاء بان معدتي لا تقبل خمرا ، تقذفه حال نزوله اليها ، والطبيب منعه عني لان كبدي ضعيف لايحتمل جرات كحولية .. اهرب بهذا من مواجهتهم بالحقيقة . اخاف ان اقول لهم : انه محرم .. لقد عاهدت امل الا اذوقه .. لا بد انها ستشعر بخيانتي فانا اعتقد ان روحينا واحدة .. واحدة .

قال احد الاصدقاء يخاطب الخادم :

ــ خمس زجاجات « عرق » .

اختفى الخادم وراء باب جانبي مضاء . وراحت عيناي تجوسان . اضواء خافتة . زنود معراة ، وسيقان ملتوية تتمسح . زجاجات تداعب كؤوسها . رائحة خمور ؛ عطور ، وبرودة الليلة تعانق الهمس . كانت الموسيقى قد بدأت تدغدغ مسامعنا بعد ان تربعت الفرقة الموسيقية صدر المصطبة .

من حولنا تبعثرت نساء شبه عاريات . اجسامهن مشوبة بالدهون العيون تلمع . الرؤوس تلتفت . تسترق نظرة الى ساقين يهتزان .. ضحكات طويلة ناعمة تخترق الصالة وعند سقفها تجمعت غيمات دخان صغيرة .

احسست انني ادخل عالما جديدا غريبا . كان اصدقائي يتهامسون ويشيرون باصابعهم الى امراة تجلس بالقرب من الباب وحيدة الى طاولة ؛ يحجب وجهها برقع دخان منثور :

ــ حزينة .. احرقت فمها بالسجاير .

ــ غدا تنسى ان صديقتها قتلت نفسها بالسم .

ــ لماذا قتلت نفسها ؟

ــ كبرت .. وخف الشغل .

ــ وهذه ؟

ــ فيها روح .. لسنة او سنتين

ــ وبعدها ؟

ــ الى جهنم ..

وضحكوا . راقبتها فترة من الوقت فشعرت بحزن نحوها .

كان الخادم قد بطح على الطاولة خمس زجاجات قصيرة مفلطحة مع خمسة كؤوس قاعدتها اصغر من فمها ، ووزع صحونا زورقية فيها فستق ، واخرى دائرية فيها شرائح بطاطا مقلية ، ووضع وسط الطاولة سطلا صغيرا يمتليء بقطع الثلج ..

راقبت الايدي وهي تشرع السدادات ؛ وقد علت الوجوه ابتسامات خافتة . التمست رائحة

المشروب في انفي فخنقته . وانتج صديقي زجاجتي وملأ كاسي وخلطه بالماء فاصبح ابيض كالحليب :

ـ اشرب حليب السباع .

امسكت بالكاس وانا اشعر بالف حزام يشد يدي .. المشروب حرام . طعمه غير مستساغ .. يفقد الانسان عقله . يقولون انه دواء الذاكرة ، ينسيها . هذا هروب ، ما دمنا قد خلقنا فعلينا ان نعيش .. لن نعيش كما نريد .. لا كما تريد الحياة .. الحياة تريد غير ما نريد .. تصدمنا تسلب سعادتنا .. علينا ان نثبت . سمعت احدهم يقول :

ـ اشرب .

قذفت الى فمي بضع حبات من الفستق . احسست بمرارة الخيانة تنمت ، جرحت كل جسدي ... احسست انني انتحر ، ان الانسان عندما يخون يقتل نفسه بيده .. سمعت الا اشرب . رفعت كاسي ولامست المشروب بشفتي المتلاصقتين تنفذت رائحته النتنة الى راسي . وتظاهرت انني بلعت شيئا . كان الاصدقاء ينظرون الي . قال احدهم :

ـ للابد . في الاول تشعر بحرقة في الحلقوم ولذع في اللسان ... واخيرا تشعر بنشوة .

اية نشوة هذه ، اذا كان الانسان غير راض عن عمله . اذا كان الندم يلبج رقبته . سالت احدهم :

ـ متى يبداون ؟

ـ لقد بداوا .

ـ اقصد الساحر ..

واحسست ان ضحكته محشوة بالسخرية .

انطفات انوار الصالة ، وانسكبت انوار كاشفة ملونة من السقف على ارض المصطبة . علت ضربات الطبل فانفرج جانب ستارة قصيرة في الصدر وقذف راقصة .

لاحقتها الانوار .. رفعت كاسي الى فمي .. علا الصياح والتصفيق . لم كفاها . غادلت الاصدقاء وسكبت قسما من المشروب تحت الطاولة . ثم اكلت قطعتين من البطاطا . وابتسمت . في الظلام يستطيع الانسان ان يفعل كل شيء دون ان يراه احد .. سادفع ثمن المشروب الذي ابكيه . ولكنني سعيد لانني اتخلص من شيء لا احبه .

انطلقت صيحات .. وانفجرت الصدور باهات عميقة .. انفتحت الف عين .. وسال الف جرح ... في المقصورات الجانبية ذات الجدران الواطئة كنت اقدر واتصور ما يمكن ان يجري فيها . قال صديقي :

ـ صفق ..

صفقت ، وانا الاحق جسد المراة بنظراتي . الموسيقى كانت قلقة لا تستقر على لحن والزبائن يخورون وهم يرددون الحان تصيرة على رنمها .. ويغضبون .. ويهذاون . تذكرت ان الحب في اليوم التالي الى ابل ، واعترف لها بانني ... بانني سمعت لعبتي بالسرقة ، وانا نائم . ليا الان تنام وهي تحلم كما احلم انا .. ابتسامتها تصبغ كل وجهها .. وجديلتها على الوسادة تنديل ملائكي . ان الحب يجعل قلب الانسان نظيفا ، يكنس منه كل غبار ..

افقت من تاملاتي على صوت المذيع يقدم بلبلا صداحا .. وخرج البلبل المراة . غنت ، اقترفت الغناء كرهت جسدها المكتنز بالخطايا .. وحاجبيها المرسومين بيد الشيطان ، وشعرها المصبوغ بدم الشر . تقيات اذناي هذا التزلف الدنيء الذي ابكي على سلمها .. هذه الضجة والصراخ من اجل الجسد . اخفيت وجهي بكفي وانا اشعر بغربتي في هذا المكان ، حتى اصدقائي لم اعد اشعر بصلة تربطني بهم .. انني اشفق عليهم . كلهم عيون جائعة ظمآنة وانا جائع مثلهم .. ولكنني اعرف ان الحياة تصيدنا بهذا الفخ . تحطمنا . اذا كانت الحياة لا تمنحنا ما نريد ، فيمكننا ان نحلم بما نريد . الا يحب هؤلاء الخائرون ؟ هل تنتهي رجولتهم بقضاء سهرة .. ليلة لا يعرفون ما يصنعون !

شعرت برطوبة تتسرب الى قدمي . فالقيت نظرة خاطفة اليها ، واتضحت لقد سكر حذائي . وقفز ذهني اليها ، رائحة المشروب كريهة . يجب ان امحو كل الاثار . كيف انظر الى وجهها غدا .. كيف اكلم المطوبة والطيبة .. باي لسان اعترف لها ، واي حجة لي .. هل ستقتنع بقصة الساحر .. اجل ستقتنع فانا اعرفها .. اعرف ذلك القلب الذي صنعته يد الصدق . سانام على يدها ، اصابعي فوق اصابعها ، والامس شعرها المنسوج بشعاع الشمس . انني اعذب نفسي . الا يكفي ان يعذب الانسان نفسه للتكفير عن خطيئة . سالت احدهم :

ـ متى ياتي دور الساحر ؟

ضحك وهو يتمايل مع لحن موسيقي حاد :

ـ في الاخر .

علي اذن ان انتظر ، ولماذا انتظر ؟

كان اصدقائي قد خلعتهم الخمرة واستولت على اجسادهم .. وراحوا يتناقلون الفاظا قذرة ويتداولون نكات فاضحة .. ويضحكون حتى تسقط رؤوسهم على الطاولة ، ويخبطون باقدامهم ويضربون بقبضاتهم ظهر الطاولة .. ثم التفت رؤوسهم وراحوا يتهامسون وبدا على وجوههم شيء من الجد . وفهمت انهم قرروا ان يكملوا سهرتهم بعد الخروج من الملهى .

اعلن صوت سريع ان الفقرة القادمة الراقصة المبدعة الفنانة : ...) واشتعلت القاعة بالتصفيق والصفير .. وعزفت الموسيقى لحنا تمهيديا قصيرا . وحين ظهرت الراقصة نهض كثيرون .. حيوها . ارسلوا لها قبلاتهم بايديهم . عانقوا كل قطعة من جسدها باعينهم ...

وعرفت انها تلك المرأة التي كانت تجلس قريبا من الباب . ران الصمت وراحت الراقصة تتلوى .. كل جسدها يتحرك .. رقبتها . ايديها . اصابعها . بطنها .. ساقاها : كلها تتحرك . شعرت بضيق .. كل هؤلاء يتحركون .. تحركهم امرأة ساقطة ، تبيع وهم يشترون . ولت نفسي ، لتصنع ما تريد ، ان كل انسان مسؤول عن تصرفاته . ولكنني لا استطيع ان اكون مثلهم الزجتني حواسي دفعة واحدة لامرأة لاتربطني بها سوى هذه الطاولة وهذا السقف خفت ان اذكر شيئا لاصدقائي من هذا .. فقد يتهمون رجولتي .

شعرت انها تنظر الي بطرف عينيها .. لم اكن اصفق ولا اتمايل . ويبدو اني اثرت فضولها . لعلها تسخر مني . ان مئات من الزبائن يتلوون .. جاءوا ليتلووا مع حركات جسدها . قذفتني باكثر من نظرة عميقة . فكرهتها .. كرهت ضحكتها القذرة . لصديقتها التي ماتت تتمدد الان في قبرها المعتم الرطب والآلاف من الدود تنبثق من عينيها ، من فمها تاكل لسانها ، وساقيها ، تلتهم صدرها .. قلت دون وعي :

— الله يلعنك .

لم يسمعني أحد . ان الانسان ينسى دوما ما يجب ان يتذكره . ازت صديقي بغضب :

— كيف ترقص ، وصديقتها ميتة

اجابني وكلماته تختلط بالتصفيق والاهات والمداعبات :

— كلنا سنموت .

ايقنت انني افكر في اشياء تافهة بالنسبة الى غيري . في حين اعطيها كل اهميتي .. اذا كانت الحياة هي ان ننتظر الموت ، فانني افضل ان نقتل اطفالنا يوم ولادتهم . اننا لم نخلق من اجل ان نموت .. خلقنا لنثبت اننا جديرون بالحياة . لم تمح صورة امل من ذاكرتي دقيقة واحدة .. كان وجهها يرتسم امامي بقتل كل غيمات الدخان . يطمس كل وجود الراقصات .. يسخر من هذه الاهات الكريهة الخارجة من اعماق النداوة : وهذه الصيحات الملوثة بنداءات فاجرة لا تستحق الحياة . سألته :

— متى ياتي دور الساحر ؟

لم يجب عني .. وادركت انني اتطفل عليهم .. اقطع عليهم لذتهم ، اشوه خيالهم . لقد فصلتهم الراقصة عن دنياهم ، سحرتهم . انهم يقتلون انفسهم .. ينتحرون . شيء تافه . تافه ، الندم يكبر في صدري لانني لوثت حياتي .. اشرعت نافذة ليتسرب منها دخان يحرق الحلقوم ، يدمع العينين ، يخنق الانف . يقولون لي انت خيالي .. عاطفي والحياة فيها كل شيء ، الخير والشر المجنون والعاقل . يجب أن يكون لكل شيء شيء . ويتهمونني بان قراءاتي اثرت على تفكيري واكلته حتى ملئاح يمنع عنه النقاء والصمود واقول : ان اجمل شيء في الوجود هو ان يشعر الانسان بان انسانا آخر يهتم به .. كنت اعلم انني لن التقي معهم في خط واحد ، ومع ذلك فانا اصحبهم الان ليثبتوا لي عكس ارائي الشاذة المغايرة لكل واقع .

وحدثت ورائنا ضجة صغيرة ، فقد حشرت طاولة بين الطاولات ، وحملت مقاعد وجلبت اخرى ، والبست الطاولة ثوبا جديدا . وانطرح صحنان كبيران محشوان بالفاكهة ؛ ووزعت ثلاثة كؤوس ، وفتحت زجاجة طويلة غير التي شربها . جلس ثلاثة من رجال الامن مديدو القامة ، ضخام الجسم . قال صديقي وقد لحظهم بطرف عينه :

— الدورية ..

رئيس الدورية له وجه مغولي وشاربان ملتويان . اندفع الى الخلف يتسم . مسح شاربيه . مال اليه احد الشرطيين وهمس في اذنه طويلا فانفجر بضحكة قذرة وعيناه تتسللان الى احضاهن . لماذا لا انهض واطلب منه ان يفتش الزوايا المعتمة . المقصورات . فما يجري فيها لا يقل ، لا يمكن ان يحدث امام الناس كلهم .. هناك اشياء يجب ان تظل سرا بين المرأة والرجل . اننا نتشبه بالحيوانات ، نقلدها . انه مسؤول عن القانون ، عن الاخلاق . والمقصورات المعتمة يجب ان تلغى . ليس لان الدين يمنع ذلك .. بل لان هذا يحطم اسطورة الاخلاق .

قفز احد الزبائن الى حلبة الرقص وادركت انني شططت في تاملاتي الاخلاقية المثالية . حاول السكير ان يعانق الراقصة ، فصدته بيديها ، لترمي على الارض ، وضجت الصالة بضحكات ، هجم من جديد .. وفجأة بلغت رجولتي .. كل رجولتي المعباة في جسدي ثارت . ووجدت نفسي على المصطبة . أمسكت بيده وقذفته بعيدا . وفي الحال امسكت ذراعي عشرون يد وقادتني الى مقعدي . صاح رئيس الدورية خلفي يخاطب اصدقائي دون ان يتحرك :

— امسكوا صديقكم السكران .. دعوه ينام في بيته .

وقال رئيس الخدم ذو العضلات بلهجة آمرة :

— لا نريد مشاكل . خذوه واغسلوا وجهه .

سمعت همسا وصراخا يتردد « سكران .. سكران » . انا لم اسكر ، حلالي هو الذي سكر ، كلهم مخمورون ، الراقصة ، والزبائن ، والخدم ، ورئيس الدورية . خجلت من نفسي فصورة امل امامي تشعرني بسخريتها ، بضحكتها البريئة ، انها تقول لي : لماذا جئت الى هنا ؟

همس صديقي في اذني غاضبا :

— لماذا لا تنظر .. وتسكت .

ورد عليه اخر :

ثلاث قصائد

موطن اجدادي

ارضي ...
ارض الامجاد
مذ كانت
موطن اجدادي !
صنعوا
للدهر عجائبه
واقاموها
كالاطواد

فهنا حرف
كان ليبقى
ابد الدهر
شمعاها هادي !
وهنا « هرم »
يصفع كبرا
وجه الموت
بكل عناد !
قل لي :
من ذا يخلق
شيئا يبقى
ابدا ....
مثل بلادي !

القـدس

القدس صرح معرد
لامة الحق ، اوحد .
عيسى لوطن فيه
واسرى ، وصلى محمد !
قال البغاة : « يطوي
يهوده .. يتودد ! »
وذاك محض افتراء
على الحقيقة ، فسد !
يا قدس ! صلى اليك
محمد وتهجد ،
لانها قطب دنيا
من اليقين ، تجتث !
ان لم تعودي الينا
فكيف وبك يعيد ؟

أرضي اغلى

ما اجمل رائحة
الارض !
تزكو بالطول
وبالعرض !
فكان العطر
لها مدد ،
ينداح اليها
او يفضي !
بعض من ارضي
عطر سني
والبعض غلا ...
فوق البعض !

رشاد دارغوث

ـ هذه اول مرة يشرب .

وفكرت : ليس كل ما نراه يمكن السكوت عنه ، انني ارى ولا يمكن ان ابدو ثالما .. يجب ان نتدخل في اي لحظة لنثبت اننا موجودون . اننا نعيش . قال لي احدهم :

ـ الملهى مفتوح من اجل هذا ..

ـ والساحر ؟

رمقني صديقي بطرفه ، لم انفصت يداه بالتصفيق .

كانت عينا الراقصة تطفح بالهزء بالدهشة .. بالرثاء ، بكل شيء . فعاتبت نفسي ، قرعتها . لقد خلقنا لشيء عظيم .. لا ان نقعد ونصفق . انني لا ادري ماذا افعل .. نحن نجري وراء نهاية سعيدة ، ولكنني لا ازعم اننا سنصل .. ها انا اشاجر رجلا لا اعرفه ، لم يحدثني يوما . لم ار وجهه ، ولم يقذفني بكلمة نابية ، لماذا اعتبر نفسي دوما مسؤولا عن شيء لا يخصني ؟!

انطفات الموسيقى الصاخبة ، وذابت معظم الاضواء . ولم يعد امامي سوى رؤوس منتفخة . كانت عيون اصدقائي قد احمرت ، وشعثت شعورهم ، قلت :

ـ انتهوا ؟

واهتزت الرؤوس .

ـ ولكن الساحر لم يطلع .

قال احدهم :

ـ حظك سيء : في كل يوم يطلع الساحر :

الا في هذا اليوم ، لم يخرج الساحر ، لماذا ؟

انسللت من بين الاصدقاء متنكبا خيبتي وندمي ، شاعرا بقبح الهزيمة . تلقفني درج الملهى الى الشارع فاحتضنني هدوء لذيذ .. سرت املأ صدري بالهواء الرطب . ووجدتني امر امام بيتها .. اقف قليلا انظر الى شرفتها .. الى العتمة التي تظلل غرفتها . شعرت بغصة في حلقي .. وتذكرت ان والدي لا بد قد استيقظ الان ليصلي ، فاسرعت .

حلب جهاد الكاتب

غربة الروح عند التوحيدي والدباغ

بقلم مصطفى درويش الدباغ

* * *

ان تمتاز بعض العباقرة ، بالمثل العليا ، وحنينهم الى المجهول ، الذي يخفق في نفوسهم ، ومشاعرهم .. واحاسيسهم ، بما في مجتمعهم ، من نقص خلقي واجتماعي وثقافي . وعدم تقدير مجتمعهم لهم ولافكارهم ، انبت شعور الغربة ، في نفوس اولئك العباقرة ، فهم يتألمون من احزانهم والامهم ، ويتعمق شعور الغربة في انفسهم كلما اشتد بأسها ، ويشتد نموها حتى لكان هذه الغربة تصبح غريبة عنهم .

لقد عاش ابو حيان التوحيدي ، فيلسوف الادباء ، واديب الفلاسفة في عصر امتلأ بالمفاسد الخلقية ، والاجتماعية ، فامتلأت نفسه ، بالاسى والشجن ، وانطوت عليها بمضغ احزانه ويجتر آلامه ، وعاش في عزلة غريبة نفسانية ، فهو حاضر في مثاله مع مجتمعه لا تتفرق روحه من مفاسده ، منفردة بأساها ، وعناد الدهر ، بقصده عن انقاذ مجتمعه ، وتطهيره مما ران عليه من المفاسد الاجتماعية .

انه يحس بمجتمعه احساسا صادقا ، وشدة الاحساس وخيبة الامل ، ولدت فيه التوتر النفسي ، فاعتراه الاسى والشعور بالغربة . انه شعور المحبة اليائسة ، التي لم تقدر ان تصنع شيئا ، فارتدت الى اعماق نفسها ، تنشد الثورة عليها ، والتنقل بها ، من حال الى اخرى ، فهو بركان ثائر يتمخض عن اللهب والحمم ، لا يهدأ ولا يركد ، يشتعل باطنه بحرارة يضرمه وهجها جوانبه ...

لقد فرضت حياة الوحدة والعزلة على التوحيدي فلم يجد الصديق الصدوق ولا الصاحب القريب ، ولا المجتمع الذي يقدر ما في افكاره ، من سمو ورفعة ، وعرف الشقاء ، حتى في ملازمة الادباء الذين عقدت لهم الرياسة ، وزاد في تغويرة الله ، والشعور بيؤسه الروحاني ، انه بعد سفرة طويلة مشيا على الاقدام ، لينزل في رحاب الصاحب بن عباد ، الوزير العظيم ، ولينشد الهدوء والراحة والاطمئنان على العيش الرخي في ظله ، ادركته خيبة الامل ، فلم يلق الا المعاملة المهينة المغلفة بالاحترام الظاهري .. اقام الصاحب مأدبة دعاه اليها ، امتلأت صحافها ، بشتى المأكولات التي حرمها في صباه ومن ضمنها (المضيرة) وهي اللحم المطبوخ باللبن والبصل ، وكلما تناول لونا كان الصاحب يعظه ويقول : لا تكثر الاكل منه ، لانه يسبب مرض السكري ، ولا من ذاك ، لانه يزيد من ضغط الدم ؛ والتوحيدي مغيظ محنق الى ان اخذ في تناول المضيرة ، وعدد الصاحب مساوىء الاكثار منها ، فاغتاظ التوحيدي وقال له :- ارجو من مولاي ان يترك التطبيب على مائدته !! لقد وجد من المنغصات ما اورثه خيبة امل شديدة ، وكيف لا يخيب امله ، بعد ان رأى المضيف يقيم الخوان ، يمنعه عن مد يده بكثرة الى اصابة ما رصف على صحائفه من الوان الطعام ، ولم يكن قصد الصاحب التطبيب على طعامه ، وانما كان يغمز للفيلسوف بغضه ، فلقد اقتحمه بنفسيته المظلمة ، وعلمه الواسع ، فتفنن في طرده باسلوب لبق ، لقد يئس ابو حيان ، فانتهزها فرصة وغادر قصر الصاحب مؤثرا الفقر والعيش الجديب ، على حياة الذل والمهانة .

وكيف لا يشعر امثال التوحيدي بالغربة ، ونصال الدهر ، تصفعهم من كل جانب وهو القائل « ان الغريب من طالت غربته في وطنه ، وقل حظه من حبيبه وسكنه » والقائل ايضا « يا هذا الغريب من اذا ذكر الحق هجر ، واذا دعا الى الحق زجر .. يارحمتا للغريب ، طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير » .

ان الغريب بحيث ما حطت ركائبه ذليل
ويد الغريب قصيرة ولسانه ابدا كليل

ويشبه التوحيدي ، في غربته الشاعر ابراهيم الدباغ ، فلقد عاش الدباغ طفولة مؤلمة ، يتيم الابوين ، مما ادى به الى الانتقال ، من يافا الى القاهرة وهو لم يتم الثانية عشرة من سنه ، فعب من الثقافة من ازهرها ، وتخرج منه الى ميدان الصحافة ، فانشأ مجلة الانسانية ومرآة الادب ، والزمان ، والصفاف ، وحرر في عدة مجلات وجرائد ، وعاش طيلة حياته غريبا يدعو الى المثل العليا ، في الوطنية والاجتماع والانسانية ، والحياة الفاضلة والروحية البعيدة عن النفاق والكذب ، يتجلى كل ذلك ، في كل ما كتبه من نثر ، وما نظمه من شعر ، لم يبع كرامته في سوق الفرش ، ولا ضميره في المزاد العلني ، انفة وكبرياء واخلاصا ، احتفاظا بمبادئه العالية ، يحس البؤس والغربة ، حتى في العيش الرغيد ، والحياة الهانئة ، عاش حياته ، حليف السقم والتمرد ، ومحاربة الظلم ، لان المظالم اكتنفته في طفولته الى ان لحق بالرفيق الاعلى ، يضيق بالكون ويشعر بالعزلة ، حتى مع كثرة احبابه واصدقائه وعارفي فضله . يقول في قصيدة طويلة :

نفس يضيق الكون عن وجودها	اتت الى اليقظة من هجودها
كم قلقت من حيز وحاقت	في جوها ، فضيقت من قيودها
لم ترتض الارض لها محطة	والقتها في سعة من بيدها
لو ان لنفسي لحياة سكنت	لم تجن غير البؤس من وليدها !

رندة الاندلس

قال المعتضد والد المعتمد بن عباد عندما اخذ رندة :

لقد حصلت يا رندة - فصرت لملكنا عقدة

وعندما زرت (رندة) تذكرت ابيات المعتضد ونسجت على منوالها :

لقد جئناك يا رندة - فما احلاك من بلدة
جنان الارض اندلس - وفيها انت كالوردة
تذكرنا ابن عباد - وابطالا اتوا بعده
تذكرنا ابن حفصون - وقوما ناصروا عهده
ففي واديك من قومي - رجالات ذوو نجدة
لقد عاشوا وقد رادوا - كرام العيش والرغدة
لقد جئنا نحييهم - فقد طالت بنا البعدة
حماة الثغر تحتلنا - فنحن اليوم في شدة
اعادينا باراضينا - اعدوا اوفر العدة
لهم في البغي نصار - ذوو ازناد مشتدة
لهم ظفر وانياب - على الاهلين ممتدة
فحتى صخرة الاقصى - بها اعلامهم عدة
ونحن اليوم في بلوى - وفي ارزاء مرسدة
فيا اجدادنا عفوا - لسائي كساره سرده
عسى الرحمن يكفينا - بلاء ترتجي صده
الاتي بعد ذا صوت - يزيل الحزن والوحدة
به عطف وتحنان - به النبرات معتبدة
لقد دالت ممالكنا - وكانت خطوة رغدة
فقل للاهل يا ولدي - بان النصر في الوحدة
فلا يتفرقوا شيعا - وان يتكاتفوا عنده
فما في الامر من لبس - وما في الامر من جدة
وسرنا بعد ذا نطوي - شعاب الارض من رندة
وصوت الربع في اذني - يقول « النصر في الوحدة »

لندن

فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى »

لقد كان يسعى الى القرش الشريف ، فيرجع بشجا حلقه ، كالنسر يعف عند الصيد ، ويعطي نصيبه للغراب، عاش حياته مرهف الحساسية ، شديد الحياء ، يعف عن الصيد الذي تأباه حياة الكرامة والانفة ، ويقبل عليه اولئك الذين اوتوا رصيدا من المكر والدهاء الاجتماعي ، ولعله ايضا يشبه الفيلسوف « فرانتش كافكا » فيما يعبر عنه بقوله انه كان يمد يده الى الاشياء والاحياء ، يمدها ما وسع المد ، لكنها كانت قصيرة لا تبلغهم ، فليس عليه الا ان يردها الى اصلها ، فيغمض عن الشهود . يقول الدباغ من قصيدة طويلة كما قال كافكا في نثره :

ما زلت احتال على حظي - لعله يكتب في رزقي
اسعى الى الرزق ، ولكنني - ارجع منه بشجا حلقي
تطوي له الارض فيجتازني - مسرعا في سرعة البرق

ويقول ايضا من قصيدة طويلة :

لي ضمير به شقيت ، فيا من - يشتريه ، يريحني من ضميري
انا منه في حالتين ، فما زلت - سيدا ، اميرا عليه وهو اميري
يطلب الاصغرون مني صغارا - وهو يأبى الا مكان الكبير

لقد وهب الدباغ نفسه الوطن والدين والانسانية ، وعف عن الصغار الذي يطلبه منه الاصغرون ، وعاش حليف السقم والالم ، في غربة نفسية ، وازدرى بالمال ، يعرضه عليه ارباب النفوذ ، بكثرة كاثرة ، في سبيل الانحراف عن مبدا الانسانية ؛ والكتابة وفق ما يرغبون ويشتهون ، والالم مطهر تستشفه الارواح الكبيرة فهو جوهر الصفاء والنقاء .

عمان ـ الاردن

مصطفى درويش الدباغ

محمد سليم رشدان

في مسالك الدروب

بقلم محمد سليم رشدان

• • •

حتى قويت شوكتهم

اولئك الذين هاجروا بايمانهم .. وهم لا يحملون مع ذلك الايمان غير جلابيبهم ، وجلابيبهم وحدها ؛ حتى ان الذين في قلوبهم مرض ، كانوا يغمزونهم بها ، فيسمونهم : (الجلابيب) ، يعيرونهم بفقرهم ، ويسخرون بهم لفرط حاجتهم ، ولشدة بؤسهم ...

اولئك المؤمنون الصادقون .. الذين هاجروا طائعين مختارين عن وطنهم مكة ، وقد تركوا فيه : اموالهم وتجارتهم ، وما يملكون ..

تركوا فيه : الاهل ، والاحبة ، واتراب الصبا ... تركوا فيه : مسارح الطفولة ، وما احبها الى النفس من مسارح .. تركوا به: مرابع الذكريات الحبيبة : وقد يعيش المرء حياته كلها ، وهو ينشد السلوان في ظل هذه الذكريات ، كلما ضاقت في وجهه المسالك ، وحزبته كالحات الامور ..

تركوا ذلك كله طائعين مختارين ، ليفروا بايمانهم هربا من ائمة الكفر : حين كانوا ضعفاء في وجوههم ؛ لا يملكون لكيدهم ردا ولا دفعا ..

وهؤلاء المهاجرون بايمانهم لهم اشباه بيننا اليوم .. لقد هاجروا مثل هجرتهم ، وهم لا يحملون معهم شيئا من متاع الدنيا ، وتركوا في اوطانهم اموالهم ، وتجارتهم، وما يملكون .. وتركوا فيها مثل الذي تركه اسلافهم الغابرون ..

تركوا ذلك كله طائعين مختارين : هربا بحريتهم من اعداء الحرية والحياة ، لانهم لا يملكون من القوة ما يردونهم به على اعقابهم، حين سلحهم الباطل بما لا قبل لهم به ..

وكما كان اسلافهم السابقون في هجرتهم غير منهزمين ، وانما كان ذلك منهم تحفزا واستعدادا ، اذ كيف ينهزمون من امر هو أحب ما في دينهم اليهم ، ولذا فهم يسمونه (الشهادة) ، حين يخافه اعداؤهم فيسمونه (الموت) ؟ بل كيف ينهزمون ، وهذا القرآن الذي تمتلىء به قلوبهم ، يتردد في اسماعهم مرتلا :

« ان يكن منكم عشرون صابرا يغلبوا مئتين ، وان يكن منكم مئة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون .. »!!

كما كان اسلافهم السابقون في هجرتهم يستعدون ويتحفزون .. فانهم كذلك ..

كانوا وهم يخرجون بحريتهم غير منهزمين فرارا من الموت على نحو ما يصنع الضعيف الجبان ، وانما كان ذلك منهم مناورة المجرب الحازم حين ينحاز الى رفاقه ، ليتحين معهم الفرصة الملائمة ، والثغرة التي يلجون منها على عدوهم ، ليضربوه الضربة التي لا تقوم له بعدها قائمة

الى اسلافهم حين وجدوا مكانا يثبتون اقدامهم فيه ، تربثوا حتى قويت شوكتهم ، ثم تصدوا لاعدائهم ائمة الكفر ، يصارعونهم ويقارعونهم ، حتى كانت الغلبة عليهم !!

فما لهم - اذن - لا يفعلون فعلهم ، وقد تهيأت لهم مواطىء الاقدام هناك ، في اوطانهم التي اخرجوا منها ، فيسارعون بالعودة اليها ، لتقوى بهم الصفوف ، وتشتد بهم العزائم ، ثم يتربثون الى ان تقوى شوكتهم ، وعندها ينتصفون من اعدائهم ، لكي يعيشوا في اوطانهم احرارا ، لا ينازعهم فيها منازع !! ...

ما لهم لا يفعلون ذلك .. متخذين العبرة ، فيما فعله اسلافهم ، ليدركوا مثل الذي ادركوه من الغلبة والتفوق والانتصار !! .. ما لهم لا يتمثلون بقول الشاعر :

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم   ان التشبه بالكرام فلاح

من يدري ؟!

قال لي : « اتدري ماذا اتمنى على الله ؟! .. »

قلت : « من اين لي ان اعلم الغيب ؟!! ماذا تتمنى على الله ؟! هل لك ان تعلمني ؟! .. »

قال : « اجل ، سوف اعلمك ؛ ان الذي اتمناه على

الله ـ هو ان يظللنا يوم من ايام هذا المستقبل العريض ، فاذا نحن نفتح اعيننا على نظام اعده المسؤولون عندنا ـ لهذه السجون المنتشرة في انحاء بلداننا العربية ـ فاذا هم يوحدونها في سجن واحد لكل قطر ، يحيلونه الى مركز للتقويم والتهذيب ، يقيمون فيه شتى أنواع الصناعات المختلفة .. ويوفرون فيه لهذا السجين مجال الخبرة العملية .. ومجال الخبرة الثقافية ..

ويقبلون به على ذلك .. يرغبونه بالاجر المنصف ، يحجزون منه جزءا لقاء ماتنفقه الدولة عليه ، لكي لا يكون عالة على المكلفين في بلده ، ويقتطعون منه جزءا يدفعونه الى من يعولهم من أهله ، ويرصدون ما تبقى يوفرونه دينارا فوق دينار ، حتى يحين موعد الافراج عنه ، فيجد ذلك المبلغ سندا يتكىء عليه ..

وعندها سوف يلج ابواب الحياة من جديد .. يلجها انسانا آخر غير الذي خرج منها يوم سجنه .. فلقد زودوه بالخبرة .. ولقد سلحوه بالمعرفة .. ولقد رفدوه بالعون المادي ..

ثم ـ الى جانب ذلك كله ـ وجهوه خلال سجنه : بما قرأ ، وما سمع ، وما شاهد ، توجيها يبتعد به عن مسالك الشبهات ، ومزالق الريب ..

تلك هي امنيتي التي اتمناها على الله .. وما ادري هل يستجيب لي ، فاذاهو يحقق هذه الامنية ذات يوم ؟.

قلت لصاحبي : « تلك امنية غالية ، ويخيل الي ان الذين يتمنوها من مثلك كثيرون ، وربما لا حصر لهم .. ولن يبعد ان يستجيب الله لك ولهم ، فاذا هو يلهم المسؤولين عندنا ليقدموا على تحقيقها .. »

.. كذلك قلت لصاحبي .. ثم رايتني اردد بيني وبين نفسي ، كانني التمس مخلصا ، ان يصبح هذا الذي قلته لصاحبي حقيقة ، فاذا انا اقول دون أن افصح :

نعم .. لن يبعد ذلك ابدا .. ومن يدري ؟! فقد يفاجئنا القدر ذات صباح ، واذا بهذه الامنية قد تحققت .. اجل .. من يدري ؟!

اما تذكر ؟!

هل سمعت ـ عمرك ـ أن مادحا يمدح لك انسانا لانه بلغ الذروة في عمل الشر وصنع الاذى ؟ ان الذي الفه الناس هو ان يمدحوا خيرا محضا ـ لانهم الفوا منه عمل الخير وصنع الاحسان ..

وهل تراك تتوهم ان عمل الخير لا يكون الا نفعا توصله للآخرين فتحس بجوارحك احساسا ماديا ؟ لئن توهمت ذلك فانت مخطىء . ان في كل نفع خيرا من غير شك ولكنه ليس الخير كله ، ان من الخير ما هو اقل من ذلك مشقة عليك . ان من الخير ان تقابل سواك بالمجاملة الحسنة والتلطف بالمسألة بل هو ما يوضحه القول الكريم في الحديث الشريف : « الكلمة الطيبة صدقة » .

وفي ظل هذا المفهوم ، اثر عن السيد المسيح انه كان يقابل ايذاء معارضيه وتهجمهم عليه بالقول المهذب والرد الحسن ، فاذا ما سأله اتباعه عن تصرفه هذا اجابهم بقوله : « انهم يبذلون ما عندهم . وانا ابذل مما عندي .. »

كما اثر عن الحسن بن علي انه كان يبلغه ذم احد جيرانه له عند مجالسه وتحامله عليه تحاملا ظالما . فكان يغضي عن جاره ويحلم ، حتى اذا ما تكرر منه ذلك ، حمل اليه مع رسول طبقا مملوءا تمرا ، واوصاه ان يقول له : انه هدية من الحسن اليك .. ، فاذا ما سئل عن سر هذا العمل اجاب : « انه حمل عني وزر ذنوبي حين استغابني عند صحبه فوجبت علي بذلك مكافأته » .

يا اخي القارىء : ما اردتك ان تكون السيد المسيح في تسامحه . ولا اردتك ان تكون الحسن بن علي في سعة صدره . وانى لك ان تبلغ مراتب الصفوة من الانبياء والصالحين ، ما اردت ذلك ابدا ، وان الذي اردته هين بسيط ، انت وانا وآخرون غيرنا نقدر عليه حين نشاء ، ولا يكلفنا كبير جهد او عناء :

الست تعلم ان النار المدمرة حين تلتهم الاخضر واليابس انما تبدأ من شرارة صغيرة هينة لا خطر لها ! وكذلك الشر ، فهو يبدأ بكلمة صغيرة هينة ؛ وانك حين تقابل انسانا غاضبا بغضب مثل غضبه ، تكون بذلك قد طرحت الوقود على النار فاضطرمت وتأججت ، ونجم عنها ما نجم من شر واذى . وانك لو قابلت غضبه بالابتسام والكلام العذب وسعة الصدر لكبحت بذلك جماح غضبه ، وارغمته على ان يعود الى الاعتدال وعدم التطاول . اما تذكر الآية الكريمة : « ادفع بالتي هي احسن .. » ؟ اما تذكر قول الشاعر :

ان الامور صغيرها مما يهيج له العظيم ؟

عمان ـ الاردن محمد سليم رشدان

شاعر

يا اجراس الصمت ومزايد الغبطة
اهزجي الآن في قلبي
بالسنة من ضباب الروح وعطر الدوالي
منذ قليل هبط شاعر من عالم الجليد
في عينيه اقمار ولهيب
وفي شفتيه سماء
من زنابق وقمح ونجوم

دمشق سليمان عواد

السيد حسن القاياتي كما عرفته

بقلم تلميذه وصديقه
محمد مصطفى البسيوني

* * *

لا يوجد في ادباء العربية بمصر ، واكثر رجال النقاد في الشرق من يجهل اسم السيد حسن القاياتي قريع شوقي وحافظ ومطران ، ورصيف حفني والبكري والمويلحي ، وعضو مجمع اللغة العربية بمصر ، وصاحب الجاه الادبي المؤثل ، والندوات العلمية الساهرة ، في النصف الاول من هذا القرن!

اجل ، لا يوجد في ادباء العربية من يجهل اسم السيد حسن القاياتي ، ومع ذلك فقد سكت زملاؤه من الشيوخ وتلاميذه من الشبان عن القيام بالواجب الادبي في تحليل شعره وتشريح نثره ، وفيهم من بلغ الجهارة والنباهة بمسمى القاياتي ! واذا كنا نفتقد الوفاء المر في حملة الاقلام ، وخطباء المنابر ، فاين نجده بعد ذلك في شتى الطوائف من الناس ؟

لقد مر ما يقرب من الاعوام العشرة على وفاة شاعر الرقة والجزالة معا حسن القاياتي . وان الذاكرة لتعبر الزمن في كل يوم لتستعيد الامسيات الحافلة التي كان يعقدها في بيته العتيق العريق الذي يتوسط عطفة السكرية ، والتي عرفت فيما بعد بعطفة القاياتي ..

ففي رحبة هذا البيت ، ذات الفناء الواسع ، كنت ترى الارائك مصفوفة، ومعدة في كل يوم لاستقبال الزائرين من كبار الادباء وناشئتهم ، ومن مريدي التصوف ومحبيه وكنت ترى اقداح الشاي العربي الهنيء تدار على القاعدين من حين لآخر ، فيرتشفون الادب والعلم ، والشاي في آن .

كما تشهد هذا المتكأ من ظل نخلة سامقة تشرئب في وسط الفناء ، لو تحدثت لروت مما تسمع ادبا ، ولحكت مما ترى عجبا ، وقد حدثني « السيد » رحمه الله ان هذه النخلة شهدت ميثاقا مبرما عقده في ظلها ـ وفيما بينهم ـ زعماء الثورة العرابية برئاسة احمد عرابي .

فبيت القاياتي اذن بيت جمع فيما بين الجدر ، عديد الصور ، وشتى الذكريات ، فهو بيت الدين والعلم ، وبيت الادب والسياسة ، فمن اعلامه في الدين السيد احمد عبد الجواد احد علماء الازهر وشيخ القشنبة في القرن التاسع عشر ، والسيد عبد العظيم شقيق شاعرنا السيد حسن ، ومن زعمائه في السياسة السيد محمد عبد الجود والد اديبنا الكبير ، وشقيقه السيد أحمد ، في الصف الاول من زعماء الثورة العرابية ، وقد ابعدا الى الشقيقة سورية نفيا لمدة اربعة اعوام ؛ وفي السياسة كذلك يحدثنا التاريخ عن الشيخ مصطفى القاياتي ، ومن بعده شقيقه السيد ابراهيم شيخ القشنية السابق بالازهر الشريف كابطال الثورة المصرية سنة ١٩١٩ . وهي اسماء خالدة قلة ، لها ـ الى جانب الدين والسياسة ـ دور في الادب جد عريق كان فارسه المحجل السيد حسن ، والرجل مع منزلته الادبية كان يتمدح بدور عائلته السياسي ، ولا ينسى ان يتحدث في ثقة واعتداد عن بعض ذكريات طفولته ، عندما طرق بابهم طارق ، فذهب ليرى من الزائر ، فاذا برجل نعل الزمن بهيئته كل سوء ظهر اثره في ثيابه ، ولحيته ، وانحناء ظهره ، فسأل « الطفل » : «هل السيد محمد عبد الجواد بالدار ؟ فلما استفسر « السيد » من اسمه اجابه « بانه احمد عرابي » اجل !! زعيم الثورة الموموق في عهدها الثائر ، وكانت كل كل البيوت قد تنكرت للرجل بعد عودته من المنفى ، مجاملة للخديو وللقصر ، الا بيتا واحدا ، هو بيت القاياتي فيا لله ما انبل .

ان بيتا اجتمعت فيه امامة الدين ، وزعامة السياسة وريادة الادب والفكر ، هو دون شك بيت يفتح للكرم والجود اوسع الابواب فلقد كانت تؤمه الوفود من الواحات وبلاد المغرب ، واقاليم مصر الوسطى لتجد فيه الاهل والسهل جميعا .. اما السيد حسن القاياتي فهو في ذلك الحفل اليومي بالله ، وفي تلك الندوة العامرة امام ؛ يضفي على المكان من مهابته مهابة ، ومن بساطته بساطة ، حتى لتكاد تلمح روح « السيد » تشع في كل شيء هنا ، وهناك ، وهو بعد جالس في الصدارة يتحدث في هدوء يلزم مريديه التزاما على السمع الدقيق ، والانصات العميق

ولقد كان الرجل مؤمنا بدوره الادبي ايمانا شديدا ، ولعله كان يرى في اقامة هذه الامسيات الادبية في داره تحقيقا ما لرسالة يؤمن بها ، وهي جمع رواد الادب ومريديه في صعيد واحد ، يؤلف الشمل ويلف الجمع ، وقد ذكر هذه المعاني يوما في صحيفة الاهرام بعددها الصادر في ٢٨ ـ ٧ ـ ١٩٤١ ، عندما تحدث عن « النادي الادبي الرياضي في الدولة الاموية » ثم ذيل حديثه بدعوة صادقة يقول فيها :

« اما اخوتنا الادباء المصريون والشعراء ، فان اليهم هذه الدعوة الكريمة الربيحة ، لقد تصرم ايها الادباء منذ اقيم ذلك النادي الاموي العربي ، ستون حجة ، ومئتا حجة والف كاملة ايقظت العصور من الغفوة ، وكشفت الغرة ، ما استجدت الحياة مدنية ، من همجية ، وحضارة من غرارة ، فاين منتدياتكم الادبية اليوم ، تؤلف الشمل ،

(*) كتبت بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاته في ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٥٧

وتلف الجمع ، ويأوي اليها من رجالات البيان بأوعية الفكر بالادب البكر .

اواه مــن شطني البسعد ... واه مــن نوسي الشرد »

ولعل إيمان القاياتي بالندوات الادبية ، ودورها في ترقية العقل والوجدان ، وتكريم الانسان ، هو الذي دفعه يوما الــى الترحيب بتأليف جماعة تضم الادباء الشبان بالفيوم ويطلق عليها اسم « الندوة » وقد حياها الرجل بأبيات مشجعة اذكر منها :

زهما شباب العصى بندوتهم ... تهو قرش يسمار موتهما

وهكذا كان الروح الادبي الاصيل هو ملهم القاياتي في ادبه ، وفي معاملاته الادبية ، يحفز الرائد ، ويشجع الناشيء ، وهو قمة في كل حال ..

بل لقد كان الروح الادبي الاصيل هو الدافع الامثل لسلوك « السيد » الذي يشير الى خلق كريم ينسل مــن اصل كــريم اذ كان متصل النسب ــ مــن جهة امه ــ بالحسن السبط رضي الله عنه ، ومتصل النسب ــ من جهة ابيه ــ بأبي هريرة رضي الله عنه صاحب النبــي صلى الله عليه وسلم . وقد اورثه ذلك النسب العربي مع جهارة البيان كرم اليد واريحية السماحة فلقد كان يعيد احاديث الفتوة العربية بسخائه المعطاء في كل مكان يؤمه ، وكازينو فاضل بالفطيمية شاهد على ذلك ، اذ مـا يكاد يحله حتى يتقاطر عليه الجمع الحافل مــن الادباء كبارا وصغارا ، وكل يعرض عليه آخر ما انتج ، والسيد مريح يعقب على كل اثر فني بما يستحق ، وكثيراً مــا يمد الى قلمه الاحمر فيضعه في رقاب القصائد تنقيحا وتصحيحا ، فاذا فرغ من مجلسه ادى من جيبه ثمن ما شرب المجتمعون على متابعة وتكرار لا يسأم معهما نقده الادبي تصحيحا ، ونقده المعدني اجرا ومكافأة !! حتى اذا انتقل الى مجلسه بالسكرية لهذا المنتدى وحضر الشادون والمتأدبون ، ولئن تغير المكان ، فما تبدل النقد والبيان !!

وهذا العطاء السمح عن طبيعة واستعداد لا عــن تكلف وافتعال ، فهو من هذه الناحية شبيه لصديقه الاستاذ الاكبر مصطفى عبد الرازق حبا للادب ، واستجابــة للاريحية ، ودواعي الفتوة ، واذكر ان الدكتور احمــد بدوي قد اشار الى هذا الشبه في خطبته الاكاديميــة بمجمع اللغة العربية حيث قال :

« احســست وانا اتصفح هذه الســيرة الحميدة ان بين سلفي السيد حسن القاياتي وبين اعز اهلي على نفسي واحبهم الى قلبي المرحوم مصطفى عبد الرازق شبهــا كبيرا في المظهر والمخبر ، وكلاهما بر ودود ، وكلاهما سخي مبسوط الكف والوجه في آن معا ، وكلاهما حسن الذوق لما يقرأ ويكتب ، ولما يسمع ويقول ، وكلاهما مشبوب العاطفة في حياء جم ، وكلاهما مترفع في غير استعلاء ، وفي حياة كل منهما حيرة فلسفية تهز النفس حنينا الى الماضي ، وتدفعهما نزاعة الى الجديد » (١) .

ولقد تجلى هذا الخلق الكريم الذي تحلى به اديبنا القاياتي في ادبه ! فكان شعره ونثره بما فيهما من جزالة في المبنى ، ورقة فــي المعنــى صورة صادقة حية تكاد تتجسم لتشير الى اخلاق « السيد » ونهجه في الحياة . لقد ابى خلقه ان ينافق الناس ، فكان ادبه بمنأى شاسع عن الملق والمجاملة اذ يندر ان ترى قصيدة مدح في شعر القاياتي بعصر سارت به الاماديح كل مسار ، فاذا رأيته يمدح ــ وقلما يفعل ــ فانما يمدح صادقا اهل الثنا ...

لقد كان الرجل صديقا للفيلسوف المرحوم مصطفى عبد الرازق منذ زمالتهما في طلب العلم بالازهر ، ثم ارتقى مصطفى الى الوزارة ، فالــى مشيخة الازهر ، وكلتاهما مما يوجب تهنئة الصديــق الصديق ، ولقــد جاشت بنفس القاياتي كشاعر مطبوع نوازع تدفعه الــى تزكية صديقه في سعادته الموالية ولكن احساسه الدقيق صرفه عن ذلك مخافة ان يظن ظان ان المدح للوزارة والمشيخة لا للمودة والصحبة ، فواد عواطفه وأدا ، وهو يكابد من كتمانها ما يتضرم من الجمر تحت الرماد الخادع ، الا ان القدر الفاجع لم يمهل صديقه الشيخ الاكبر فاختطفه الموت على غير ميعاد ، وهنا فاض الطوفان الحبيس بين الشواطيء من اليمين والشمال الى حيث يهدر موجــه هديرا باكيا بقصيدة من عيون الرثاء جاء فيها :

يا مصطفى اسل الحجا ... في امة خطبت مجاهدا
فشر الانسك ربهـا ... في مثل خيمك واحتسابها
الشمس بينك والعلا ... تهـل طرفة دجاعها
الديـن بيـت للاسمة ... الجاهدات ، وما بناها
في هدى طه يطلي ... نكيهاك ام في علم طه
فكنت بنفسك مرة ... للنار يتلقها للتلاعبها

هذا الاحساس الرقيق صرف الشاعر عن مواقف كثيرة لو انتهزها لدوت باسمه الصحف كما دوت باسماء تلاميذه ، ومريديه ، فقد كان بخلقه المثالي حربا علــى الوصولية والانتهازية في زمان (كل مدراج وصل) وحسبك ان تعلم ان الصحف الوفدية حاولت ان تجر القاياتي الى معاركها الحزبية باعتباره عضوا بارزا في البرلمان الوفدي آنذاك ، فأبى كل الاباء ، ولــم يخص الجرائد الــوفدية وحدها بنفثات قلمه ، بل جعل تراثه الحفيل نهبا مقسما بين جميع الصحف فكنت تراه في : الجريدة ، والدستور ، والاهرام ، والسياسة ، والبلاغ ، وكوكب الشرق ، كما تراه في الرسالة ، والثقافة ، والازهر ، والمنار ، والبيان ، وهو في كل ذلك بذوب روحه ، وعصارة نفسه ، يعرفــه القراء تمام المعرفة حتى ولو كتب بدون توقيع اذ ان طابعه من البروز والوضوح بحيث ينادي تلقائيا على صاحبــه دون امضاء .. وقــد فطن الى ذلك اديب مصر الكبير الاستاذ المرحوم عبد العزيز البشري حين تحدث عن ادب

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الرابع عشر سنة ١٩٦٢ ، (٢) مجلة الازهر ، مجلد سنة ١٩٢٨ مقال بعنوان « الفكر المعكى »

ربيعي

خرجت لنزهتي يومـا ... ونـور الفجـر مرفض
وقـد سال علـى الوادي ... فمحمـر ومبيـض
فقال الورد لـي مهـلا ... وقـال السوسن الغض
ربيعـك ذا فعانقـه ... فقـد اقلك المـض
فقلت وناظري يرنـو ... الـى برق لـه ومض
ربيعي لم يجيء بعـد ... ولـم تنعم بـه الارض

ربيعي يـوم لا جهـل ... علـى الارض ولا بغض
ولا فقـر ولا حـرب ... ولا رفـع ولا خفـض
ولكـن رحمة عمـم ... وحـب خالص محض

تبسم ساخراً منـي ... غراب .. ما لـه نهض
وصاح اليوم ... من حولي ... بنساؤك سوف ينقض
وعمرك سـوف تخسره ... وشطك سوف ينفض
فهـذا الابـد الناجي ... كسحاب ما لـه نقض
فقلـت وباقلي امـل ... كـان شعاعه فيض
وعزمي ما لـه وهن ... وجفني ما بـه غمض
ربيعي سوف القـه ... وان طـال بي الركض
وان مت علـى الدرب ... ونايـل الـبي النبـض
فيمضي سـوف القـه ... ويبقى خالـدا بعض
فتزدان بـه الدنيـا ... وتفـرح امـه الارض

حلب ... عمر ابو قوس

« السيد » فقال في صدق واخلاص : (٢)

« لو تهيأ للبيان ان يتمثل خلقا ، لما جمع بيان السيد حسن القاياتي الا على صورة صاحبه ، وفي مثل شكله ودله سواء بسواء ، ولو لم يكن قدر لي ان أرى السيد حسنا ، ثم رأيته ، بعد ان نهلت من بيانه ، لخيل الـي أن اتهدى وحدي الى ان هذا الانسان صاحب هذا البيان.

عرفت السيد من صدر ايام الطلب فـي الازهر ، وسرعان ما امتد بيننا حبل المودة فكان من يوم منجمـه يرسل الكلام : ويقرض الشعر ، اذ شعره واذ نثره صورة صادقة حق الصدق ، لسلامة نفسه ، وجزالة طبعه ، وحلاوة خلقه ، بل انك لتحس فـي بيانه بالحياء الـذي تحسه فيه نفسه » .

وهكذا نرى ادب « السيد » صورة واضحة الملامح لخلقه ما ورث منه وما كسب ، وفي ديوانه الذي اصدره سنة ١٩١٠ ، وفي آثاره بالصحف والمجلات قرابة خمسين عاما او تزيد ، شاهد لما يريد ...

هذا قليل من كثير مما اعرفه من الرجل ، وانـي لارى واجبا على تلاميذه الكثيرين ان ينهدوا الى تحليل ادبه ، وتشريح بيانه ، حيث اكتفيت هنا بذكريات عابرة عـن حياته ، ولعل الاديب الكبير الاستاذ محمد شوقي امين المحرر الاول بمجمع اللغة العربية ، والاديب البحاثة الدكتور محمد رجب البيومي ، وهما في طليعة المتذوقين لادب « السيد » يقومان ببعض الواجب في هذا المجال ، فيعملان على جمع ديوانه الثاني المبعثر في شتى الصحف والمجلات ، وهما بعد من رواة شعره وحفظة آثاره ، وما ذلك عليهما بعزيز .

الفيوم — ج. ع. م. ... محمد مصطفى البسيوني

مسرحيات وليم بتلر ييتس

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

وليم بتلر ييتس (١٨٦٥ – ١٩٣٩) شاعر وكاتب مسرحي ايرلندي ولد بالقرب من مدينة دبلن ، ومنذ بواكير شبابه اكب على مطالعة الكتب ، ولا سيما الشعر ، فعب من هذه المائدة ما استساغ ، واخذ سحر الكتاب من قلبه مأخذا عميقا ، حتى انه تاه في اروقته ودهاليزه ، ولم يعد يستطيع العيش بغير رفقة الحرف الوهاج والكلمة المثيرة ..

وفي سني شبابه اشتد ساعد الحركة الاستقلالية الايرلندية ، واخذ بارنيل الزعيم المعروف مقاليد الدفاع عن وطنه ، البائس الذي وطأه الانكليز الغزاة ، فداسوا مقدساته ، وعبثوا بشرفه ، ومصصوا دماء ابنائه وبناته ، واعاقوا تراثه ، والغوا على الهويته ، واستبدوا بوجوده ، واستغلوه ما استطاعوا الى الاستغلال سبيلا ، ومزقوا شمل وحدته ، فهذه الستر في الشمال وتلك ايرلنده في الجنوب ، الاولى بروتستانتية ، والثانية كاثوليكية .. وكان الجزيرة الواحدة جزيرتان .. فكيف لا يتحزب ييتس الشاب مع من تحزب من الشباب ، طلبا للقسيم ، وسعيا الى وحدة الوطن واستقلاله ، واثبات وجوده واحياء تراثه والمشاركة الفعلية في نضاله وجهاده ؟ واذا كان الشعب الايرلندي قد غلب على امره ، فهو لم يقهر ولن يقهر ، فقوة الشعب العظيمة وان ضعفت وهانت بالتشتت والتبعثر ، فهي لم تزل حية ، في الهبات المتناثرة هنا وهناك ، في اعمال الريف ، في المدن العتيقة المتوارية ، في المزارع والمعامل ، بين ابناء الشعب الواحد ، في التاريخ الاسطوري والفولكلوري لهذا الشعب السلتي ذي الماضي العريق . ومع ان بارنيل وحزبه لم ينل الحكم الذاتي الذي سعى اليه بعزيمة وارادة جبارتين ، اذ انه قضى نحبه سنة ١٨٩٠ فان اتباعه حذوا حذوه وظلوا يواصلون الجهاد الصادق بصبر واناة وروية ، واذا كان قد بقي تراثه الاثير لديه ، ذلك التراث المتمثل في اغانيه الشعبية وقصصه الفلكلورية ، واساطيره المتميزة ، فان الشعر الغيلي Gaelic والانكليزية الايرلندية التي ترجم اليها ، استطاعا ان يجدا لهما الطريق الى الحياة ، والى الادب ايضا : الاول على يد دوغلاس هايد والثانية على ايدي ليدي غريغوري و جون سنج . وهنا جاء دور ييتس ، مؤسس الحركة الدرامية الايرلندية ، ليثبت اصالة الاساطير السلتية وقدرتها في الواقع الدرامي على التجسد وبعث الحياة في الوحدة الثقافية للامة ، ايقاظا للمشاعر البطولية الكامنة (١) . ولما كان هذا العمل يقتضي ايجاد مسرح متلائم مع البيئة الثقافية الحديثة ، ليكون لهذه الاساطير مفعولها السحري في قلوب الناس وعقولهم معا ، لكي تلتهب الروح الوطنية التي مضى على سباتها قرون وقرون منذ القرن الثاني عشر ، فقد عقد العزم كل من ييتس وادورد مارتين وجورج مور والليدي غريغوري على تأسيس « المسرح الادبي الايرلندي » سنة ١٨٩٨ . وبعد ذلك بأمد قصير تحول هذا الى مسرح « ابي » الشهير الذي اصبح الدعامة الاولى في حركة احياء التراث الايرلندي ، من جهة ، والتوجيه الروحي للتيار الوطني الذي انتهى بانتصار ايرلندا واستقلالها من ربقة الهيمنة الانكليزية العاتية ..

وفيما كان هذا التيار بين مد وجزر ، كان ييتس يعمل ليل نهار وبغير انقطاع ، على قرض الشعر وكتابة المسرحيات ، الا ان ذلك العمل المنهك لم يحل بينه وبين الحب فقد شغف حبا بـ « مود غون » الثائرة الايرلندية الباسلة التي كرست حياتها برمتها لرسالتها المقدسة ، ولذلك لم يكن لها من الوقت ما توفره لقلبها وليتس الذي ارادها ان تكون له وحده ، ولا سيما اذا علمنا ان ييتس الشاعر ، المفكر الذي يتعلق في الاعالي ، كان يكره السياسة بالمفهوم الذي كانت تفهمه الفوضى . وكان يكره الالتزام بأي قضية لانه ير يخلصه لوازل كل قضية وهذا ما حمله على الابتعاد عن الشؤون العامة على الرغم من انتخابه نائبا سنة ١٩٢٢ . وييتس المؤمن بالعاطفة والغريزة ، لا يرى طريقا لسير تحريرهما من كل القيود والاصفاد ، وهو لا يرى في السياسة والكهنوت الا ضربا من هذه القيود والاصفاد ، ولو اكتفى الامر لديه عند هذا الحد لهان ، الا انه يغالي ويتشدد في المغالاة ، الى حد نكران نشاطات الفكر (المنطقي المنظم) ومن ثم فهو حرب على العقل ، لان العقل يبحث عن الحقيقة التي تنشأ من التجربة الموضوعية بينما هو يبحث عن الرؤيا الخالصة ، ومع انه كان يريد ان يجمع بين الرؤية والحقيقة في وحدة عضوية ، الا انه ظل طوال حياته يجهد بحثا وراء الرؤية تاركا وراءه الحقيقة وهي تبحث عن نفسها .. و « الباحث عن صورة لاكتشاف العقل الحديث لنفسه » على ما كان يقول ييتس في اواخر ايامه ، لم يجد تلك الصورة ، لانه ظل مصرا على اعتبار تحرير الغريزة ، وخاصة غريزة الجنس مقصده الاول في الحياة لانها الركيزة التي تستند اليها العاطفة ، وهي المجال الذي كان يطوف بين ارجائه ..

والشعر ، في رأي ييتس شعر طليق ، بعيد عن « الشعور بالخجل والمسؤولية » لا يقيم وزنا لاية مقاييس او معايير او تقاليد ، انه حر بمعنى الحرية المطلقة ، يتناول ما يريد تناوله بغير التزام ، وهو يجوز في تلك الوثنية والصور الوحشية والالهة المحرمة » وهو لا يهتم بشيء اهتمامه بقوة الحياة وينبوعها المتدفق ، اما (المعنى العقلاني) لـ « مصير الانسان فلا يكتشف الا عن طريق الرمز الشعري الذي يحافظ على سلامة القوة الخلاقة عند الجنس البشري (٢) » . ومن ثم فمصير الانسان متعلق كل التعلق بالرمز الشعري لانه لا ينكشف له الا بواسطته ، ولان هذا الرمز هو السياج الذي يحافظ على اسرار القوة الخلاقة ، التي لا تعدو بالنتيجة الاندفاعية الغريزة الجنسية ذاتها .. ولهذا السبب بعينه فهو يقول في قصيدته « السياسة » : « كيف يتسنى لي ، والصبية الجميلة تقف قريبة مني ، ان اركز انتباهي على السياسة الرومانية او الروسية او الاسبانية ؟ (٣) » .

اما مأساة الشعر في العصر الحديث فلا تبدو واضحة الا في تمزع الشعور والعاطفة والغريزة تحت قمع جبار عنيد هو الفكر ، فالفكر في منطقه القاسي ، في طغيه المنظم ، في احتوائه على كل مقاصد الحياة ، واستيلائه على مقاليد المدنية والعمران والحضارة ، جعل الهدف الواحد في الحياة هدف الآخرين ، ومن ثم جعل تحجر القلوب امرا لا بد منه ، وفي هذا الصدد يقول ييتس « القلوب ذات الهدف الواحد ، تبدو خلال الصيف والشتاء ، وكأن السحر يحيلها الى حجر ليعكر مجرى الحياة » . (٤) ورد الفعل العنيف هذا الذي يبديه ييتس للمدنية العصرية رد مشروع معقول ، لان الآلية ومكننة كل حقول المعرفة الانسانية وسيطرة الآلة على نفوس البشر جعلت هذه النفوس الآن بحورها والرغبتها من مضامينها الانسانية ، ومع ان ييتس لم يشر الى هذا الواقع المرعب ، الا ان نفوره من كل شيء رتيب ، من الكنيسة والدولة والاحزاب والسياسة والمال والعلوم الوضعية ، يمكن اعتباره منطلقا لفهم نفسيته ، ولو ان روزنتال يحاول جاهدا الا يتطرق الى هذه الخلفية المهمة كل الاهمية في تقييم ييتس بصفته شاعرا في كتابه « شعراء المدرسة الحديثة » وقد تكون له في ذلك مقاصد غير خافية . المهم لدينا ، ان ييتس الشاعر اهتم بالمسرح اهتماما لا يقل عن اهتمامه بالشعر ، وهو – في الصدد – قد ابدع ايما ابداع اذ جمع بين الاساطير والاقاصيص الشعبية وبين الوقائع التاريخية والروح الشاعرية الخلاقة ، في مسرحيات تنبض بالحركة والجمال

والجــلال .

مسرحية على شاطيء بيل

واهم هذه المسرحيات هي (على شاطيء بيل) و (كاثلين ابنة هوليهان) و (الكونتيسة كاثلين) والاولى مأساة تتناول مشكلة الاختيار والجبر ، تلك المشكلة الخالدة التي لم تتوصل الانسانية — في تاريخ مسيرتها الطويلة — الى حد مقبول لها بعد . فكوتشولين (الذي يمثل الاحمق) رجل مطلق ، اختار الحرية ، واجتاز العقبات المتحجرة ، فعرف معنى العمل والاندفاع نحو مباهج الحياة ومسراتها ، فهـــو (يرقص ، ويصيد ويحارب ويحب من يحب) وكل همه في الحياة ان يحيا متمتعا باكبر قدر من الحرية ومن الانطلاق والعفوية . امـــا كونتشوبار (الذي يمثله الاعمى) فهو داهية ، ماكر ، خداع ، يلوذ بالعقل كلما احتاج الامر الى حل مشكلة من المشكلات ، ومن ثم فهـــو هادىء ، رزين ، ينتهز الفرص ، للوصول الى غايته الاولى والاخيرة وهي السيطرة على والد كوتشولين البطل الشجاع الذي يقف كالطود الشامخ ، يحول بين الاعداء وبين الوطن الام . انه « قتل كوتشولين الوالد ، وابناء الملوك ، وقتل قيلان الماء وسواحر الهواء .. » فماذا لا يحتمي به الملك الضعيف كونتشوبار !

ها هما كوتشولين وكونتشوبار يدخلان القاعة الكبرى في مدينتهم وهي محل اجتماع بالقرب من البحر .. وكوتشولين لا يزال يحــدث صاحبه : « تريد مني ؟ الان والان ، وعدا بالولاء لك ، لتضيف حصاة الى كومة الحصى ، لا بد لي ان اكون كبعاثك ، بل عبدك ، ان كنلا غريرا مــن بلاد (ايفي) وجد الشاطيء متروكا بغير حراسة » . فكيف الى ذلك الفر الى الشاطيء لو لم يكن كوتشولين منهمكا فــي الصيد او الرقص او احتساء الخمر بعيدا عن القتال والاستماع مــع اصحابه للمريدين ؟ » .

وهذا الاستفهام الاستنكاري لا يكتفي به كونتشوبار ، بــل هــو بصفته ملكا ، صاحب سمة ملكية وراثية ، يعبر سلالته بالكبر المتنابـة ولذلك فهو يقول : « لا بد لي ان اترك بلدي لابنائي قويا ومستقرا » . ولاجل ذلك فما على كوتشولين الا ان يتنازل عــن ارادته الحرة ، ويروح ويجيء بارادة الملك ، ويجلس في مجلس الشورى بين شيوخ البيض طاعنين في السن . وهو الــذي لان ميرد خسمه يعطــي الــلامـة والامن على البلاد .. ان ابناء كونتشوبار يسرون ابائهم ويطالبونه بالحد من نفوذ كوتشولين لان الملك اذا ذهب لحال سبيله فسيقعون تحــت رحمة كوتشولين ، وهو « النار التي تحرق الارض » ولا يستطيع اي كان ان يمسها » ، وما ان عبر الملك من مخاوف ابنائه تلك ، حتى انبرت ملامح كوتشولين ، واستبد به الغضب واخذت كلماته تتدفق حارة : « .. وتذهب الحكاية الى ابعد من ذلك . على ان الشيخ اي طفل لنفسه على العرش كانه انت . » فلا يكون من امر الملك الا ان يقول : « انك تلومهم لانك لم تحظ باطفال من صلبك » . هذه الكلمة ، بالقياس الى رجل يفتقد الاطفال ، صفعة شديدة الوقع في النفس والروح والوجود معا ، ولذلك نجد نفس كوتشولين متأزما حزنا قاسيا حين يقول : « انني نفسي محظوظ انني لن اخلف روحا شاحبة او مسخرة تجـرف مدمدمة في الدولة حيث كنت اضحك واغني » . ويذكره ذلك تعقيبا على قوله بالمرأة (الفاسية) التي فضلها كوتشولين على بنات الملوك في سكوتلنده حيث تعلم فنون الحرب والفروسية ، فتغزوه الذكـرى فيقول : « آه ، كونتشوبار . انك لم ترها ، براسها المسحوك الشامخ التي بالحركة والانتعاش ، وعينيها الباهتتين الزرقاوين .. حسبي كان الحب يسري في عروق بدنها .. انها — على الرغم من جدبها وانتفائها للولد ، كانت تملك من الجمال ما يعوز كل الفتيات والماشطات ، ولذلك كانت جديرة كل الجدارة بان تلد الولد » . ولكن كونتشوبار ، بدلا من مسايرة كوتشولين — في تهويماته ، يؤكد من جديد حال البلـد

وتوقع الهجوم عليه بقوله : « ان اعداءنا يزدادون ، ويهاجمون اسوارنا، وانت بين الجدران ، تزداد عربدة وصخبا كل يوم ، واذا ما تأملت على هذه الشؤون ، حلق خيالك ، كانه عصفور الدوري ، يتقلب فـي الهواء . » لا شك في ان الملك عاجز عن دفع البلاء بغير يد كوتشولين القوية وقلبه الثائر ، وان الملوك الصغار والشعب كله بانتظار قسم الولاء الذي لا بد منه لكي تعم الطمأنينة وتخلد النفوس الى الاستقرار، فقوة كوتشولين هي قوة النظام والقانون ، المتمثلة في الملك وقوة الشعب التي تدعم كوتشولين وتمنحه البلى والعزم والقلب الكبير .

كوتشولين رمز الشجاعة والفداء والايثار والرجولة والشهامة ، وهذا الرمز لا يتجلى في شيء تجليه في قول كوتشولين نفسه وهــو يرى الملوك الصغار تجمه صافرة ، « ان هؤلاء صقور تبتني الـــى الاجواء وتقرب في الشمس عليا » . والصقر الكبير كوتشولين يتعلى في الاعالي ، وينظر الى سخرية على الصقور الصغار وهي تحـــاول التعلق به والوصول اليه .. غير ان الامر المهم هو مسالة الدفاع عن البلد ، ورد كيد الاعداء الى نحورهم . المهم ان يعرف الصقر المحلق عاليا ان الوطن في محنة والاعداء يتقدمون وليس الوقت وقت لصخب ومسرة ومباهج ، فلا بد من شيء من الماء يصب في دمه ، فقد حان الوقت لذلك ، ليكن القسم ، ليكن باي شيء ، بالقمر ، بالشمس ،بالماء بالضياء او بالهواء ، لان ارادة الرجل الوحشية يمكن تطويعها علــى الضد مــن ارادة المرأة .

وتحل ساعة مراسيم القسم ، وتخرج كلمة الولاء من فم كوتشولين مدوية عالية تعلن العزم الاكيد على الطاعة للملك والولاء له . ويفتح الباب ليدخل شاب من (ايفي) ، عزيز الجانب ، قوي الشكيمة ، مرهف ، متدفق ، مدجج بالسلاح ، لتبرق النيران من فيه متكافئة مع كلماته ، ويهجم الملك على الشاب بغية الاجهاز عليه ، ولكن كوتشولين يحول بينهما وبين ما يبغيان .. ويضع يده على كتف الشاب ويتوجه بكلماته الى كونتشوبار مؤكدا له ان الولد يشبه اكبر التشبه بالمرأة التي تحدث منها اليه .. ثم يتساءل موجها كلامه الى الشاب : « ... يا فتى ما الذي جلبك الى هنا ؟ الا تخاف من الموت ؟ » .. وحين يشرح كونتشوبار تحدي ملكة « ايفي » لبلده وما يتطلب ذلك من مواجهة .. يجيبه كوتشولين : « حسنا ، ثم ماذا ؟ » فيتابع الملك ويقول : « ان الامر غير ذي اهمية ، كان ذلك ليس الا تهويمة اخف من الهواء ، ونزوة لحظة لا اهمية لها ولا قدر لذلك لا تملك من يخلفك ، واذا فليس لك ان تقر كما اقر ، انا الذي ساخلف عرشا لا يرقى اليه الصقر » ..

ويحملق الشاب في وجه كوتشولين ويلتقط كلماته اللطيفة برضا وسرور وقر عينه بهيبته وشهرته ويريد ان يتزحزح عن روح الخصومة والقتال . لكن ماذا سيقول الناس عنه في مملكة « ايفي » . سيقــال عنه : انه جبن في الساعة الحاسمة ، انه انهار وتبشر وعاد الــى مملكته يجر اذيال الخيبة والعار . ولكي يتلافى هذا الامر يتدخــل كوتشولين في صميم الموضوع ويقول له : « .. ساعطيك هدايا تعرف كل « ايفي » انها مني ، (يريه المعطف) هذا ما اعطاني اياه والدي ، حين جاء يجربني بعد ان انطلقت في الفجر من البحر الشتوي .. او قل لها انني كنت خائفا ، او ما شئت . لا . قل لها انني سمعت غرابا اسحم ينق في الجهة الشمالية من البيت ، فخفت » . وينتشر الخبر بين الملوك المنتظر ، ان السحر قد اصاب كوتشولين بمس لا شفاء لـه منه . وخاصة وقد تمثلت في عدم اكتراثه حيال تحدي الشاب وزعم الحاح لذلك ان يرد الصاع صاعين على مثل هذا التحدي ، فلا بد مــن وجود ساحرات خاطفات في الهواء .. وهنا لم ير كوتشولين مناصا من القول : « نعم ساحرات ساحرات الهواء » ويلتفت الى الشاب ليقول له : « لماذا فعلت ما فعلت ؟ من الذي دفعك الى هذا الفعل ؟ » ولكن الذي ينكر ذلك كل الانكار .. وتمضي الاقدار تخطط المصائر بهدوء

وبطء وسم التراث .. ويخرج البطلان الى الساحة ليتواجها لآخر مرة : الابن يواجه اباه ، والاب يحس بان من يواجهه هو ابنه . ولكن الملك الكبير وسائر الملوك والانظمة والقوانين تأبى الا ان يقتل الاب الابن .. لتكون المأساة حلاوة ابدية على مر الزمن وكر العصور .. وبعد ان تلطخت يد الأب بدماء ابنه ينتابه السحر حقا ، ولكنه الان ليس السحر المعروف ، انه الجنون بعينه .. يعود كوتشولين الــى ثانية العرش ليجد العرش فارغا ، ويقفز كوتشولين عليه فيضربه بحد السيف ويقول : « انت الذي قلت ما فعلت ، انت الذي جلست هناك » وبيده صولجان الملك ، كالمشنق يحتضن مشنقة مسروقة » .

والمضي الحياة بين الاحمق والاعمى الى غايتها ، من غير ان يعرف المرء نهايته .. ويشتد جنون كوتشولين ويمضي الى البحر لكي يحاربه ، ويمتشق حسامه ويمضي اليه بقوا وعزم والقسوة بالثأر ، ويستقبله البحر استقبال الفاتحين ، ويحتضنه احتضان الشهداء البواسل ! ..

مسرحية كاثلين ابنة هوليهان

اما مسرحية (كاثلين ابنة هوليهان) فهي تبحث عن ثورة الشعب الايرلندي سنة ١٧٩٨ بعد الثورة الفرنسية الكبرى ، وفيها يعرض ييتس لنا شخصية كاثلين البطلة الاسطورية عرضا شعبيا منبثقا من اعماق الشعب متلازما مع عاداته وطموحه ، خلفيته حياة ريفية خشنة : الفلاح بيتر المعروف بتقتيره وبخله والابن الشاب ميشيل ، وهو في عشية زواجه ، والبيت كوخ بالقرب من كيلالا والام بريدجت ، فلاحة حريصة على بيتها ، عرفت بمساعدة زوجها كيف تكون بيتا .. والكل بانتظار « داليا » خطيبة ميشيل لزوجته الموعودة .. الحديث يسير الاب والام يجري كما هو المعتاد في مثل هذه البيئة الريفية : الاب يتحدث عن الدوطة مسرورا فرحا والام تشاطره الحديث وتزيد عليه بشيء من الكلام على ترتيب البيت وتنظيفه .. وتطل عجوز غريبا على العائلة التي بانتظار الخطيبة . وبعد ان يضع بيتر المال في مكان أمين لئلا يكون عرضة لنظر طارق غريب ، يلتفت الى العجوز متسائلا : « هل اتيت من بعيد ! فتجيبه : لقد اتيت من بعيد ــ بعيد جدا ، قليلون من سافروا بعيدا كما سافرت ، وكثيرون من لا يرحبون بي »(٥) لقد طال بالعجوز التجوال منذ اللحظة الاولى ، اللحظة التي بدأت فيها مسيرتها .. وبينا على تعجب بريدجت من عدم ملاكها رغم كثرة طوافها تعترف بالتعب والكلال وتقول : « في بعض الاحيان تتعب قدماي وتكل يداي ولكن قلبي لا يكل » .

وانه لارادتنا المقاصلة ، المتمثلة في كاثلين انه تالها التعب ونهكها الكلال ، لكن روحها الساحقة الجبارة ، المليئة بالاخلاص والولاء والنضال ، لا يكل ولا يمل ولا يتعب انه قلب كل الشعب ، البواسل من ابناء الشعب .. وتنظر بريدجت في معنى طوافها وتسائل بسذاجة ريفية : ماذا حدا بك الى الطواف ! فتجيبها القديسة الواهنة : « ازدحم البيت بالغرباء » . هكذا بكل بساطة وروعة وجلال وبلاغة واصالة تعلن القديسة عن الحقيقة الروحية العظيمة ، حقيقة احتلال الانكليز لارلندة ، فالبيت رمز لارلندا لما الغرباء فهم الانكليز المحتلون الطغاة .. ان ارلندا البلد الوديع قاسى الاهوال من الاحتلال ، وقد تركت المآسي طابعا واضحا على وجه هذا البلد الجميل وحل من هول المآسي من سلب ارض الوطن . ها هي العجوز تقول : « لقد اخذوا ارضي مني » . وهنا تتحرك غريزة التملك في نفس بيتر فيقول : « هل كانت كبيرة المساحة ! » فترد عليه قائلة : « اربع مزارع جميلة خضراء » (٦) .

وتتحدث العجوز عن العديد من الرجال الذين ماتوا من اجلها ، ويمضي بيتر البخيل في غيه ، فيحسب ان ما عانته المسكينة قد ذهب بمالها ، بينما تمضي القديسة في الحديث عن شهداء الماضي والمستقبل

وتحاول ان تقنع ميشيل بالاقتراب منها ، وهنا تربك بريدجت وتساورها الشكوك فتقول مخاطبة زوجها متسائلة : « هل تظن انها على صواب ؟ ام هي من عالم بعيد ! » لكن زوجها يعد قول العجوز هذرا ويعزو هذا الهذر الى العوز والالم .. ويحاول بتالي شديد من زوجته ان يقدم شلنا الى العجوز ، فترفض ثم ترتضيه ذلك وتقول : « لو اراد احد ان يساعدني فلابد ان يهبني نفسه » ... امر محير غريب هذا الذي تتحدث عنه القديسة ، امر اثار حب الاستطلاع الشديد في نفس ميشيل ذاته ، فجعله يتساءل : « هل تشعرين بالوحدة في طوافك بالطرقات يا سيدتي ؟ » فتجيبه : « لي افكاري وآمالي » . ولا اي آمال هذه ؟ » سؤال في مكانه طرقه ميشيل ليطلع على كنه المسألة : فيأتي الجواب حلوا : « الامل في ان استرد حقولي ثانية . الامل في ان اطرد الغرباء من بيتي » .

وكيف تستطيع ذلك ؟ انها تستطيع ذلك بمساعدة اصدقائها الذين يتجمعون الآن ، وهي ليست خائفة ، فلو هزموا اليوم فسيتصرون غدا وتتبع افراد العائلة لمعرفة هويتها فتخبرهم انها « كاثلين ابنة هوليهان » ويتكشف المستور عن البطلة القديسة .. ويؤخذ ميشيل بسحرها وينصت بكل جوانحه وهي تقول : « ان من يأخذ على عاتقه مساعدتي فقد اخذ عملا جللا . كثيرون من ذوي الوجوه النابضة بالحياة اليوم ستصير وجوهم تعلوها صفرة الموت . كثيرون ممن يسيرون بين التلال والحقول الخصبة والاراضي السهلة سيصبحون وهم يمشون في اراض وعرا في بلاد بعيدة . وسيحطم كثير من اعمالهم » . وتستطرد في الحديث عن التضحية والفداء ، وعن خيبة الامل ، وضياع الاموال ويتم الاطفال وثكل الامهات وترمل الزوجات . ومع ذلك كله تخرج كاثلين من الكوخ وهي تنشد « سيذكرون الـى الابد ــ سيعيشون الى الابد ــ سيتكلمون الى الابد ــ وسيسمعهم الناس الى الابد . » فهم الخالدون المخلدون ، الذين وهبوا حيواتهم رخيصة من اجل الغد المستقل الاخضر الذي سيطل على البلد ، بلد الجميع ...

وفيما هم في شغل شاغل عن ثياب الزفاف ، كان ميشيل في شغل شاغل آخر ، فقد التهبت في نفسه روح الوطنية واشتعلت النيران في قلبه ، فنسي كل شيء سوى ذلك الصوت الداوي الذي اطلقته القديسة وهي في طريقها الى الغرباء ، الى خليج كيلالا ، حيث ينزل الفرنسيون الاحرار لمساعدة اخوانهم الارلنديين الباحثين عن الحرية ، وها هو باتريك شقيق ميشيل الاصغر يقدم من مكان تلاقي الفرنسيين والارلنديين ويقول : « ان الرجال جميعا يهرعون من التلال ليلتحقوا لاصدقائهم الفرنسيين حتى يطردوا الانكليز جميعا من ارلندا » . فماذا يفعل ميشيل الان ؟ ان اباه وامه وخاصة خطيبته يريدونه ان يبقى معهم ، ولا سيما والليلة ليلة زفافه ، ولكن اي زفاف له معنى والعبودية تطوق عنقه والاغلال تصفد قدميه ؟ وما معنى ان يكون مرتاحا في بيته الصغير ، كوخه الحقير ، ووطنه تمرح فيه الثعالب وتسرح ، وخيراته تنهب واعراضه تستباح ، وحريته تخنق ، واحراره يعلقون على المشانق او يقذف بهم الى غياهب الزنزانات او ينفون الـى المنافي ؟ ومع ذلك يتهاوى ميشيل بسحر عناق خطيبته ، لكن رجولته تعود اليه بفعل صوت العجوز وهو يردد « .. وسيسمعهم الناس الى الابد » . فيندفع الى الطريق اثر الصوت ، واي صوت ، لم يكن

(١) دبليو ، اي ، ارمستورنك في مقدمة « الدراما الارلندية الكلاسية » (٢ ، ٣ ، ٤) شعراء الفرنسة الحديثة م-ل- روزنتال ، ترجمة جميل الحسيني . (٥) شواهد مسرحية « كاثلين ابنة هوليهان » ترجمة علي حيدة من « مختارات من المسرحيات القصيرة » . (٦) الاشارة هنا الى ولايات ارلندا الاربع : اولستر ، مونستر ، لينستر ، وكونوت .
(٧) هذا القول منسوب الى اللاهوتي الكبير القديس توما الاكويني .

صوت عجوز ، بل صوت فتاة شابة كأنها ملكة .

مسرحية الكونتيس كاثلين

اما مسرحية (الكونتس كاثلين) فهي مزيج شاعري بين اسطورة « الكونتيس كاثلين اوشيا » وبين شخصية مود قون البطلة الارلندية الجميلة التي قامت بادوار عظيمة للتخفيف من وطأة المجاعة التي حدثت سنة ١٨٩٧ والتي اجتاحت فلاحي كيري ودونيقال ، نحن الان في ارلندا في الايام القديمة ، في غرفة بيت يمتلكه الفلاح شيموس روا ، والغرفة تضم بين جدرانها زوجته ماري وابنه تيغو الصبي ، ماري تستشعر خوفا من انتفاضات دجاجتها الرمادية ، وتيغو يتحدث عن المجاعة التي ضربت الارض ، تيغو يخرج من الغرفة ويعود اليها مرعوبا لانه رأى طائرين ، اذا صحت التسمية ، بل بومتين ذاتا قرنين ووجهين يكادان يشبهان وجهي انسان .. انه لا يرى فائدة من صلاة امه .

ويدخل شيموس فتهب الزوجة معربدة في وجهه معاتبة له على ابطائه فلا يجد الزوج الا ان يؤنبها على قلقها وهذرها ، فلقد مضى عليه نصف نهار في الغابة يبحث عن شيء من الطعام فلا يجد شيئا ، ذلك بان الجفاف الذي اصاب الارض أمات حتى الجرذان والقنافذ .. فكيف يستطيع ان يجلب شيئا للعشاء .. انه جلس بين الشحاذين في مفترق الطرق ، فلما وجدوا غريبا يقاسمهم نصيبهم من الزكاة تجمعوا عليه وانهالوا عليه ضربا بالعصي والحجار ، ماذا اذن الم يبق شيء في البيت ؟ في البيت رغيف متفسخ ، وشيء من الطحين يكفي لرغيف آخر ، ودجاجة في القن ..

وبينما افراد العائلة في همهم يتباحثون تدخل كاثلين وحبيبها الشاعر آليل ومربيتها اوونا ، فتسلم على الجميع وتذكرهم بالقصة الرمادية القديمة ، ماري تعرف القلعة وتعرف انها تقع بين جدران لا يمكن النفاذ منها ، كل ما يزعج العالم لا يمكن ان يجد طريقا اليها .. وتتعرف ماري على الكونتيسة من كلمة قالتها الاخيرة ، ويتكلم شيموس عن الخبز فيقول : « من مدة طويلة عثرت عيني بالخبز او بما يشتريه » .. اذن هم جياع كما هي حال الاخرين والكونتيس لا تدري بحالهم وهم سكان الغابة الاقربين الى قلعتها . اذا كان شيموس قد قال شيئا فهو يعتذر عما بدر منه ، فكيف لامثاله ان يشكوا !

وتقدم الكونتيس ما تبقى في محفظتها من فضة الى شيموس ، فضة لا تجد طريقها الى اي نوع من الطعام ، فالخبز واللحم ينذران كل يوم والاسعار ترتفع الى ذرى لم يسمع بها انسان من قبل . وتغادر الكونتيس المكان مع حاشيتها ، ويظل شيموس يتطاول على ملتمسات زوجته ، ويجيبه بعنف فينهال عليها ضربا لكي يثبت سيادته .

وبينما افراد العائلة في مناقشة حادة ، يدخل احد التاجرين اللذين يبحثان عن الارواح المستعدة لتبيع انفسها باي ثمن لسلطان التجارة ويتحدث عن مهمتهما فيقول مبتدئا : « نحن تاجران قد طوفنا العالم .. وجئنا الان نبحث عن ركن هادئ ، انعم لكوننا » . غير ان ماري لا تحسب هذا التاجر غير شيطان رجيم ، غير شبح لا وجود له ، ولذلك يعجب التاجر الاول من رأيها هذا ويقول : « من الغريب ان تحسبنا اشباحا ، اذ ليس من وجود اكثر اصالة ، في ملتقى العالم ، من وجود التجار وهم يشترونكم ويبيعونكم . » انهم شياطين – على رأي ماري والا كان عليهم ان يطعموا الجياع او يعينوهم بالمال ، ولكن اين هم الفقراء المستحقون ، ان التاجر لو عرفهم لا تحمل هو وصاحبه من رفدهم والاسهام في مساعدتهم . ماذا يريد هذا التاجر ؟ انه وصاحبه لا يريدان شيئا لا يملكه كل البشر ، ها ان البشر قد باعوا ماشيتهم وحقولهم ودوابهم . كل ذلك لم يبق منه شيء . ان التاجر يقول : لا لم يبيعوا كل شيء بعد . فثمة شيء بخاري يمكن الا يعد شيئا . هذا ما يخشره البائع – انه ذات ثانية يسمونها خالدة ارضاءا للاقاصيص والحكايات » . الان فقد جاء التاجران يبغيان شراء الارواح .

وهذا ما فطن اليه شيموس والفه تيغو فطالما ينبغي لهم ان يموتوا جوعا ؟! القضية بسيطة ، الموضوع يمكن ان يعتبر لا شيء . ولا سيما والاقدار لا تصب من جعبتها غير المجاعة ، والشيطان يقدم المال ، الاب والابن متفقان ، اما الام المؤمنة الورعة ، فقد كاد اليأس يجرفها لولا بقية من الايمان انتفضت في نفسها وجعلتها تقول : « يا معطي الارواح . ان الله سيعركم قريبا ولتجلون كالاوراق في النهاية ، وتطلقون كالحشرات الميتة على ابواب الله » . وهنا يتدخل التاجر الثاني ويقول : « اعني ما شئت ، فللقديسين ايضا احلامهم »! ويضيف التاجر الاول الى قول ماري قوله : « ولو كنا لا نعدو غير حشرات ارسلها سيدنا لاحتلال العالم ، فهو في النهاية سينتزع اضلاع القمر الشاحبة وسيطفئ النجوم والكواكب ليعود (الكون) الى الليل الاصيل » .

وتعود كاثلين ، في مشهد الغابة ، الى الظهور مع آليل واوونا ، والمسؤول عن ادارة قلعتها . المسؤول يخبرها ان بعضهم تمكن من اخذ نصف حمولة عربة من الارانب والفرار بها ، وتعليقا على هذا الخبر تقول كاثلين متسائلة : « هل قتل اي من الناس ؟ » وحين تطمئن من ان هذا الامر لم يحدث تمضي في قولها : « الذهب او الجوع ، الموت جوعا ، هذا هو الخيار » و « لقد قال احد اللاهوتيين المجتهدين ان الناس الذين يموتون جوعا يستطيعون ان ياخذوا ما هم بحاجة اليه من غير ان يصيبهم ذنب من الذنوب (؟) » . فتندهش المربية من هذا القول متسائلة : « بربي ولمَ ، لا بد ، ان ، من وجود اثنان مكسورة على الجدار . » ان كاثلين تؤمن ان الله يغفر الذنوب اذا ما ظل الايمان سليما غير مزعزع ، فليس من روح في العالم يمتاز عن غيره من الارواح .

وفي هذه الغابة ، تجمع المصادفة بين كاثلين وبين شيموس وابنه تيغو ، شيموس مسرور لانه استطاع ان يبيع (قبضة) من الريح وابنه فرح ساخر ، لان شيئا لا يعدل اللذة قلبه يباع بالمال الذي يشترى به الشراب والسرور والهناءة ويزيد على ذلك ابوه بقوله : « اذا كان ثمة ارواح فهي التي تنأى بالجسد عن الريح ، واذا كان ثمة عالم آخر ، فحري بي ان اصبح كالتي بالذين يستطيعون ان يطعموا المال ، لا بتلك الايدي التي ارهقت المجاعة من الجبهة » .

ومع محاولات كاثلين لاقناع شيموس وابنه ، بعدم المضي في سبيل الشيطان ، فانهما يرفضان الانصياع لمشورة كاثلين ، ويمضيان في طريقهما غير عابئين ولا مكترثين . وتنتزع كاثلين من نفسها كل هم غير العناية بيتامى ارواحهم ، وتعود الى البيت ، قلعتها المشهورة لتجد التاجرين وقد حلا ضيفين عندها ، وتحاول ان تدفع البلاء عن عباد الله ، ولكن بغير جدوى ، ان التاجرين يستطيعان بسبب غفلة كاثلين من سرقة خزينتها ، فكيف يمكنها الان وقد ذهب المال ، ان تفدي تلك الحشود المدينة من النفوس ، الا ان ابليس مع كل ذلك لا يستطيع ان يدخل على قلبها ، ذلك القلب المليء بالايمان ، بالخير ، بالثقة بمستقبل الانسان . فماذا تفعل وقد غلبت على امرها ، وسلب منها مالها ؟ انها تستطيع ان تفتدي الناس ، فباي شيء الثمن من نفسها ، تستطيع ان تفعل ذلك ! ويكون الفداء العظيم ، وتتحرر النفوس بموت نفس واحدة . ها ان الصفقة قد تمت بين التاجرين والنفس العظيمة الممثلة لكل الخير والبر والانسانية والعدل ، وهنا يتنفس روح كل ذلك في الوجود ، ليلغي الصفقة المشؤومة ، وتتنفس اوونا المربية من سباتها لتقول : « اولوا اللذين يمشون على ارض السلام التي ساموت والحب الى التي احبها . فالسنون كالثيران السود الكبيرة تدوس العالم .. وانا احطم تحت اقدامها السائرة » .

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة

نزل الى الشارع فاذا الشمس على اشتدادها .. تلسع وتكوي .. وشبان يزرعون ما بين شقتيه في خفة وسرعة ، ملوحين للمارة .. والمارة يتدافعون فوق الطوارين في غير تزاحم . وتنفخ في غيظ . فقد أيقن انه سيعود الى بيته ماشيا .

وفي حين اخذ المارة يتوقفون بين لحظة واخرى عند مقهى أو متجر .. يتلقفون بضع كلمات يرعد بها صوت المذيع .. ثم يعاودون السير وهم يتراشقون نظرات ازدحم فيها الرضا والغضب ، بقي هو ـ دونهم جميعا ـ يمشي وحده .. في خطو ثقيل .. لا ينظر الى عابر به ولا يتلقى نظرته .. ولا يتوقف عن السير لحظة .

وبعد ان قطع ثلثي الشارع او يزيد .. احس بألم في قدميه فتوقف .. وانتحى جانبا مستظلا باحدى الشرفات .. ودار بعينيه وقد اراح عنهما الشرود بنصف وعي .. ستقاتل .. في وجه العدو شياطين في الجو .. ستهزم الصهيونية ..

وتشبثت نظراته باللوحات الملصقة على واجهات البيوت . كلمات تؤجج الحماس .. هذه قيمة الكلمة .. قال لهم ذلك فاوشكوا ان يسخروا منه .. يريدون ان يندفع مثلهم في هوس وجنون .. ينظم المرور او يدس الناس داخل المخابىء .. كما فعل زملاؤه اليوم حين امروا الموظفين ان يبارحوا مكاتبهم ويعجلوا بالنزول الى البدروم .. ليته بقي وحده في مكتبه .. لكنه خبها فرصة لالقاء كلمة في جموع الموظفين يستفز بها حماسهم .. لم يدر بخلده انهم سينصرفون عنه .. شدهم منه المذيع الذي راح يعلن في حماسه الاهوج .. سقوط عدد جديد من طائرات العدو .. هللوا وصفقوا فضاع صوته وتلاشى .

وعاود المشي صامتا .. وفي نهاية الشارع انعطف الى شارع آخر .. ولم يكد يخطو فيه بضع خطوات . حتى رأى تاكسي اوقفه بعض الشبان واحاطوا به .. وتميز غيظا عندما لمح داخل التاكسي امرأتين ممتلئتين .. هم اذن لا ينظمون المرور او يحافظون على الارواح .. وانما يلهثون وراء نزوات وطيش .

وقبل ان تنفرج شفتاه لترميهم بسخطه ، يسمع احد الشبان يقول :

ـ قلنا ممنوع مرور العربات اثناء الغارة .. فارجوكما النزول . وبخصوص الحقيبة فيحملها احدنا بدلكما ..

وتسمر في مكانه غير مصدق ما

بقلم اسماعيل علي اسماعيل

سمع .. وانفتح باب التاكسي .. وعقب نزول السيدتين ، مال أحد الشبان داخل التاكسي ، وتناول حقيبة كبيرة ، حملها في يده ومشى بها في اثرهما ، في حين اخذ الباقون يتبعثرون من جديد .

وتملكه ضيق خانق .. ولم يشأ ان يتبع الشاب والسيدتين ... فأشاح عنهما .. وانصرف يستأنف السير صامتا شاردا ..

ووصل شقته متعبا .. ونام وقت القيلولة كعادته عقب الغداء .. وحين استيقظ من نومه قبيل الغروب .. فتح النافذة واقتعد مقعدا قريبا ..

ومضى يقلب بصره بين صفحات كتاب امسكه بيديه .. وبين الدرب الذي تطل عليه نافذته .. ركود وصمت .. لكن عما قليل سوف يضج الدرب بالاقدام التي تقطعه جيئة وذهابا طوال الليل .. لكم يلعنهم . لا هم يأتون عملا نافعا .. ولا هم يريحون راسه من زعيقهم ودبيب خطوهم .. فيخلو الى كتبه وكتاباته ما حاجة الناس الى ما يفعله اولئك الشبان .. اليس الناس بقادرين على اطفاء النور دون حاجة الى زعيق يأتيهم مفزعا مرعبا .. لكن ما يحيره هو امر عم خليل .. العجوز الذي ناهز السبعين .. فماذا يدفع بعجوز مثله لان يطوف الدروب والازقة .. يصيح بأصحاب الشرفات والنوافذ المضيئة .. وهو يداعبهم بكلمات حلوة .. هل تراه يخاف الموت ؟ بعض الذين بلغوا من العمر ما بلغ .. يرهبون النوم خشية ان يطبق عليهم الموت بغتة .. ويؤثرون الجري في كل مكان ظنا منهم ان هذا يفجر في شرايينهم دماء الحياة فلا تتوقف ولا تجف .. لكن حسنين ونعيم وعلي .. وكلهم مثقفون مثله ما حافزهم الى الانضمام الى اولئك الذين يضيعون وقتهم بلا عمل نافع. لا .. ليسوا في مثل ثقافته .. بل هم ليسوا موهوبين مثله .. هو كاتب موهوب .. قال له ذلك احد الاساتذة الذين سمعوا قصته الاخيرة

وانتبه على صوت جاءه عن قرب والتفت ينظر من النافذة .. واذا بحسنين يناديه باسما .. وقام واقفا .. وانحنى يطل برأسه وصدره من النافذة .. ويمد يده يصافح صاحبه ..

قال حسنين في جد ظاهر :

ـ اسمع يا صالح .. نتوقع الليلة غارة فماراْيك لو جئت تمر معنا .. انه عمل وطني وعلى فكرة نريد ان تعمل لنا مجلة حائط نعلقها في المقر ..

واجاب صالح وقد تخضب وجهه ببسمة واهنة وحياء غير ظاهر :

ـ من ناحية المجلة اعطها ... فالكلمة لها اثرها في المعركة .. اما ان الف في الحواري صارخا اطفئوا النور يا من هناك .. فهذا عيب على امثالنا ان يفعلوه ..

وتمتم حسنين :

ـ هذا الذي تراه عيبا لا يقل بحال من الاحوال عن الكلام الذي ابديت استعدادك لكتابته في مجلة .. وانزل معنا وجرب ..

واطال حسنين الحاجه .. وبقي صالح على تردده حتى غلبه الحاح صاحبه .. فغير ملابسه ونزل الى الدرب يمشي الى جواره ساكتا .

وقضى صالح فترة في مقر الدفاع المدني ينصت في استغراب ودهشة الى الاوامر التي تتدفق من بين شفتي مسئول الجماعة . فتتخاطفها الآذان الثائرة حوله في اهتمام وشغف .

وحين نزل الليل .. اخذ الشبان يتدافعون الى الدروب والازقة .. تسبقهم أصواتهم مناشدة باطفاء النور وقام حسنين وصالح يطوفان بالحي مثل الآخرين .

وبعد ساعات قليلة .. اختنق الحي كله بالسكون والظلام .. وانقلب اللف والدوران بصعدان السأم الى نفس صالح .. ويؤكد ان له خوائهما .. عندئذ توجه الى صاحبه قائلا :

ـ ما لزوم لفنا هذا وقد اطفأ الكل النور ؟

رد حسنين وبسمته تبرق في الظلام :

ـ لا بد ان نبقى هكذا طول الليل

هتف صالح في استنكار :

ـ طول الليل نلف وندور ..

ورنت من خلفهما ضحكة خفيفة ، فاستدارا على الفور ، واذا هما في مواجهة عم خليل .. العجوز الذي ناهز السبعين ..

وبادرهما العجوز وبسمة مشرقة تملأ غضون وجهه :

ـ هل اتعبتك ليلة واحدة يا صالح؟

وقال صالح في صوت ارعشته المباغتة :

ـ لا ابدا .. لكن ..

وقاطعه العجوز وقد انزوت بسمته وبان الجد على قسماته :

ـ في حارة العسلي بعض شقق ما زال النور الداخلي فيها مضاء .. قالوا ان مالكيها يتعشون اذا حدث شيء فسارعوا اليهم ليطفئوه ..

وسكت العجوز ... وهم صالح ان يقول له شيئا .. لكنه لم يجد ما يقوله له فلبث صامتا يحملق فيه وساد صمت ثقيل ..

وبغتة .. عوت صفارة الانذار ، ومضت تمزق السكون بعوائها الرهيب .

وهب العجوز صارخا :

ـ اجروا يا اولاد .. لا تتركوا نورا مضاء ..

وهم بان يجري ، لكن قدمه تعثرت ، فاتكفأ على الارض .. وكان حسنين قد انطلق مهرولا ، ولم يبق متبلدا في وقفته غير صالح ..

وراى صالح عم خليل ، وهو يهوي على الارض . فصاح وهو يدنو منه في لهفة متعجلة :

ـ عم خليل ..

ورد العجوز في صوت متهدج :

ـ اجر انت لتساعد زملاءك ...

وطفق يحاول النهوض .. فانبرى صالح يرفعه من تحت ابطيه ..

وهمس العجوز وهو يربت فوق ظهر صالح باحدى راحتيه :

ـ اذهب يا صالح فها انذا قد نهضت ..

ثم انتصب واقفا ، ومضى مسرعا وهو يلهج بصوت يتماوج بين ضعف وقوة : اطفئوا النور ..

وتولت صالح قشعريرة هزت بدنه ، وهو يرى العجوز يضيع في الظلام ، ولا يبقى منه غير صوته الذي استمر يجيئه من بعيد هاتفا :

ـ استعدوا يا رجال .. وراعوا المخبأ والادوار الارضية ..

وفجأة ، اندفع صالح كالقذيفة ، وصوته يخرج من حلقه مرتعدا بالانفعال ..

ـ اطفئوا النور هناك ..

ولم يدر كم مرة دار دروب الحي وازقته .. فبعد فترة كان الدوي والقصف يفتتان السكون .. والبرق الخاطف يمزق الظلمة المتكاثفة ...

.. وسمع اصواتا تأتيه من وراء الظلام :

ـ المخبأ هناك ..

ـ امشوا فوق الارصفة ولاتخافوا

ـ افتحوا الادوار الارضية يا رجال ..

وجال بصره في الظلام المحيط به .. وعانقت عيناه صبية يرتجفون خوفا وهلعا .. وهم يتعلقون باذرع نسوة يهرولن بثياب النوم .. ورجالا يضمون الى صدرهم اطفالا ويجرون.

وفاضت نفسه حزنا .. وود لو آمنهم جميعا من خوف وفزع ...

وتذكر ان المخبأ يبعد عن البيت الذي يسكن طابقه الارضي .. فاتجه اليه مسرعا .. وهناك وجد كل سكان البيت يتزاحمون عند الباب الخارجي .. ففتح شقته وادخلهم اليها .. ثم انسل الى الشارع ثانية.

ورجع بعد قليل الى شقته ... كي يسأل من فيها ان كانوا يحتاجونه في شيء .. واشعل عود ثقاب .. ولبرهة لمح وجوها كثيرة تتجه اليه والاضطراب يلقي على صفحتها ظلالا ثقيلة .. واحس برغبة في البكاء .. لكنه تماسك .. واستمر يحدق في الظلام بعد ان انطفأ عود الثقاب .. وخيل اليه أن عيونا من حوله .. ينبثق منها بريق يكاد يجلو الظلمة .. فيرى كل شيء ... وان همهمتهم تستحيل انغاما تهدهد سمعه .. وانفاسهم تهب عليه ... دافئة .. تذيب في نفسه برودة

توبة مغترب

أتيت الي تسمعني
حكايا تجرح الاحساس بالاحلام تفجعني
وقلت بانها بلهاء ساذجة تصدقني ...
وتغفر كل أخطائي كعادتها وتعذرني
أليت - سلاحك الكلمات ... تسكرني .. تخدرني
تقول : برغم آلامي .. برغم الحزن ينهشني
برغم جميع ما ألقى من الارزاء والمحن
برغم البعد عن وطني
برغم مشقة الاسفار تفنيني وتنهكني
فما من قوة في الارض او شيء يغيرني
وليس سواك من احد .. مدى الايام يشغلني

ترى هل انت تعرفني
اتذكر اننا يوما تلاقينا .. اتذكرني
أحقا انت من قد كان فوق الارض يحطني
وبالاحلام يغمرني
أحقا انت من يشقى .. ليحييني ويسعدني
عرفتك « سندباد العمر » للاوهام تجرفني
عرفتك تسكب الكلمات كالوهان في اذني
تفكر في سعادتنا . تفكر كيف تفرحني
وتسأل دائما عني .. وتخلص لي ... وتعبني

أتدري ؟ ... انت تحزنني
تحملني بما تحكيه كل مصائب الزمن
تطهرني من الاحقاد ... تبكيني ... وتضحكني
فقل ما شئت لا تخجل من الماضي ... أتفهمني ؟!

عمان ـ الاردن   عبد الرحمن عاليه

ووحشة ..

وانسابت دموعه رغما عنه .. واستدار خارجا .. وقبل ان يتخطى عتبة البيت .. دوت صفارة الامان، فارتد عائدا من فوره . وعم الهرج لحظة بدأ سكان البيت الذين اكتظت بهم شقته ، يزحفون عائدين الى مخادعهم ، وقد انجابت ظلال الاضطراب عن قسماتهم ، وتلاشى الخوف من عيونهم .. ووقف قرب السلم يودع ساكنيه في صمت .. وبقي يلاحقهم بنظراته حتى تواروا عنه .. وحين اغلق باب شقته على نفسه .. احس أن الصمت فيهما انيس .. والفراغ الذي يعمر جنباتها غير موحش .. ولم يحسهما يوما هكذا .. رغم الفته لهما سنين طويلة .

واستغرقه التفكير لحظات : انقلب بعدها باسما ، فقد هداه فكره الى قرار ; وعقد العزم الا يحيد عنه، ولشد ما كانت دهشته عندما لجأ الى سرير نومه .. فلم يفاجئه كما اعتاد وهو يتقدم منه .. ذلك الخوف من الارق .. وانما لقيه شعور لذيذ .. راح يدغدغ اوصاله ... فتمدد فوق الفراش وهو يبتسم في نشوة .. ثم اغمض عينيه .. وسرعان ما غط في النوم .

القاهرة   اسماعيل علي اسماعيل